269

HARLEQUIN

روايات أحلام

قطار النسيان

آن ميثر

www.elromancia.com
مرمورية

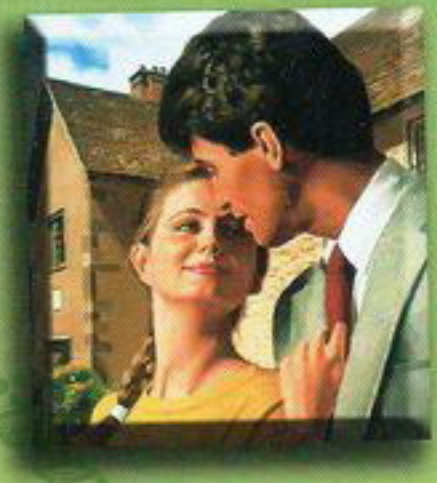

قطار النسيان

قالوا لها إن اسمها جسيكا دفلين وانها كانت مسافرة إلى الشمال للمطالبة بأرثها. كان هذا ما أخبروها إياه في المستشفى بعد حادثة القطار.. فهي لا تتذكر شيئاً أبداً..
ولكن لماذا تشعر بكل هذا الضيق بشأن هويتها؛ لقد عاملها الجميع بلطف خاصة ابن عم أبيها جايمس... ولكن قلبها غير مطمئن...
أتراه يخبىء وراء جاذبيته وسحره دوافع خفية؛
وماذا عن قلبها الذي بدأت تعصف به رياح الحب الهوجاء؛

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-106-7

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

الطبعة الثانية 2007

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

Dark Mosaic

First published in Great Britain 1989

Harlequin Mills & Boon Limited

© Anne Mather 1989

Translation © Dar El-Farasha - 2002

ISBN 9953 - 15 - 106 - 7

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - ستر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟
لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الإختيار؟
ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

آن ميثر

بدأت آن ميثر بالكتابة منذ طفولتها وتطوّرت أعمالها تدريجياً من روايات المراهقين الغرامية العاصفة إلى روايات الحب المتّزنة التي تهوى مطالعتها. وهي متزوّجة وأمّ لولدين، يعيشون معاً في شمال إنكلترا. تستمتع آن ميثر إلى جانب الكتابة بهواياتٍ عديدة، منها المطالعة وقيادة السيّارات والسفر إلى أماكن مختلفة حيث تعثر على أفكارٍ لرواياتٍ جديدة. تعتبر آن ميثر نفسها محظوظة جداً بممارسة عملٍ لا تستمتع به فقط، بل يدرُّ عليها المال كذلك.

www.elromancia.com

١ ـ الشبيهتان

هذه الفتاة تشبهها إلى حد بعيد. نفس الأنف المستقيم، نفس الفم الذي اعتقدت «سيسي» أنه أكبر قليلاً من أن يكون جميلاً، ونفس العينين اللتين اعتادت جدتها تشبيههما ببنفسجتين وضعتهما أصابع ملطخة بالسواد، حتى الشعر هو نفسه، مع أن ضفيرة «سيسي» الوحيدة كانت تختلف عن شعر الفتاة الأخرى المنسدل. لكن لون الخصلات القمحي كان متشابهاً تماماً. ولو كانت ملابسهما متشابهة لظن الناظر أنهما أختان.

لكنهما لم تكونا كذلك، أخذت سيسي تفكر بأسف، وتتأملها بتأنٍ. كان واضحاً أنها لم تكن في طريقها إلى مقابلة عمل أخرى يكتنف نجاحها الشكوك، مثلها هي. ولكن، على كل حال، ليس هناك من يبحث عن وظيفة وهو يرتدي معطفاً من فرو السمّور الثمين. أما الغريب فهو أن تركب مثل هذه الفتاة عربة الدرجة الثانية، بينما ملابسها تؤهلها للسفر بالدرجة الأولى.

حوّلت سيسي نظراتها إلى مشاهد جوّ ضواحي لندن التي كان القطار يمر خلالها، وحاولت أن تسبغ على توقعاتها شيئاً من الحماسة، ولكن كان من الصعب أن تشعر بالحماسة للعمل في شمال إنكلترا، بينما من عرفته في حياتها، وما خبرته، موجود في الجنوب.

ولكن إذا نجحت في هذه المقابلة، فستكون لديها، على الأقل، وظيفة تساعدها على تحقيق ما تريد، فمنذ تخرجها من معهد الفنون، وتأملها بصفة مصممة نسيج، لم يحالفها الحظ في العثور على مثل هذا العمل في لندن. لقد

مضت عشرة أشهر منذ أرغمتها الحاجة على الإنفاق من الإرث الصغير الذي تركته لها جدتها وبالرغم من تقشفها في معيشتها، فقد أصبحت أجرة السرير في الغرفة التي عاشت فيها طوال السنوات الأربع الأخيرة مشكلة يصعب حلها.

عندما كانت جدتها على قيد الحياة، بذلت كل ما في وسعها لتساعد حفيدتها الوحيدة هذه، وكان والداها قد قتلا عندما كانت سيسي في الرابعة من عمرها. كانت جدتها كل ما تبقى لديها من أقارب في الحياة. ثم، منذ أربع سنوات وعندما كانت سيسي تدخل معهد الفنون، ماتت هي أيضاً. ومنذ ذلك الحين أصبح على سيسي أن تعيل نفسها. وفي المعهد لم يكن الأمر سيئاً للغاية، فقد تعلمت بمنحة من الوزارة، وكانت تشغل أوقاتها بالدراسة. وفي أثناء العطلات كان سهلاً عليها العثور على عمل مؤقت. غير أنها منذ تخرجت من المعهد في تموز الماضي، وهي تتلهف إلى إثبات نفسها في الحقل الذي تعلمته، وكانت تعلم أنها إذا استمرت في ممارسة أعمال مثل موظفات استقبال ونادلات في المطاعم، فلن تزاول أبداً العمل الذي اجتهدت في دراسته وتعلمه، وهذا هو السبب في وجودها الآن في هذا القطار المتوجه إلى «ليدز» ومن ثم إلى «شركة ريبلي» للنسيج... لقد ظفرت بموعد لمقابلة مدير موظفي الشركة في الساعة الثالثة والنصف من عصر هذا اليوم، فإذا سارت الأمور على ما يرام، فستبدأ حياة كاملة جديدة في الشمال.

- الجوّ حار هنا، أليس كذلك؟

لم تجب سيسي للحظة... إذ لم تدرك على الفور أن الفتاة كانت تتحدث إليها. لقد حكمت بأن الفتاة شخص صموت مُتعالٍ بالتأكيد. لذا كانت دهشتها بالغة وهي تراها تبدأ الحديث معها.

أجابت مستفهمة: «أرجو المعذرة؟».

فأخذت الفتاة تلوي وجهها مكررة بأسف: «قلت إن الجوّ حار هنا، أليس كذلك؟».

وأنزلت المعطف عن كتفيها وطوته على مقعدها، متابعة: «أظن أن هذا المعطف هو الملوم. فهو رغم أناقته ثقيل جداً على مثل هذا النهار؟».

فقالت سيسي وهي تخفي ابتسامتها: «إنه معطف رائع، ولكن، نعم، الجوّ حار هنا. أظن أن جهاز التدفئة ما زال عاملاً... لا أظنهم افترضوا أن الجو سيتغيّر بهذه السرعة».

- لا. فقد كان الجو فظيعاً أليس كذلك؟ مطر، مطر، مطر! ظننت أنه لن يتوقف أبداً. على كل حال، فقد ظهرت الشمس الآن. إنها فأل خير، أليس كذلك؟ وكأنما تتنقلين إلى ما هو أفضل.. هذا ما يحدث لي بالفعل حالياً.. لكنني لا أعرف بالنسبة إليك.

فقالت سيسي بابتسامة ثابتة: «فلنأمل هذا».

فعادت الفتاة الأخرى تقول، وهي تخرج من حقيبة يدها علبة دخان ثمينة: «هل طريقك بعيدة؟ هل لديك مانع إذا دخنت... أكاد أختنق».

هزت سيسي رأسها، ثم قالت كارهة: «إلى ليدز».

قالت هذا آملة أن تتوقف رفيقتها عن الأسئلة لكن هذه هتفت وهي تشعل سيجارتها بقداحة مزخرفة: «ليدز؟ هه؟ يا لها من مصادفة! فأنا ذاهبة إلى هناك. أتصدقين ذلك؟».

هزت سيسي رأسها بجفاء ثم حولت عينيها تنظر من النافذة: «لا».

فقالت الفتاة وهي تمجّ سيكارتها: «ألم تتعرفي إلى ليدز من قبل؟».

أجابت سيسي: «لا. إنها زيارتي الأولى إليها. لدّي مقابلة بشأن وظيفة».

- آه، فهمت. هل أنت سكرتيرة أو شيء قريب من هذا؟

فقالت بصبر: «أنا مصممة نسيج. أصمم نقوشاً على القماش وغيره».

وعندما بدا الارتباك على الفتاة، هزت سيسي كتفيها: «هذا أمر لا يهم أحداً لا يعمل في التجارة».

فأسرعت رفيقتها تطمئنها، قائلة: «لا، أنا لا أعني ذلك. فقط أدركت أننا... متشابهتان قليلاً، أليس كذلك؟».

لوت سيسي شفتيها قائلة باندفاع: «ولكن ليس من الداخل، فمعطفك هذا دليل».

www.elromancia.com

ولكنها أحست بالندم على ما قالته. رباه، فعادت تقول وقد احمر وجهها: «أعني... لم أكن أعني...».

فقالت الفتاة بعدم اكتراث: «أعرف ما تعنينه. أنت تتساءلين كيف أن فتاة مثلي ترتدي ملابس كهذه».

نقرت بإصبعها على ثوبها الحريري هازئة: «لو كنت مكانك لتساءلت مثلك عن هذا. حسناً، أنا لم أسرق هذه الأشياء».

فشهقت سيسي قائلة: «آه، أنا لم...».

فلوت رفيقتها شفتيها قائلة: «لقد أحرجتك، أليس كذلك؟ أنا أفعل هذا دوماً. وهذه هي نتيجة الصراحة والسبب أنني اعتدت أن أسكن مع أناس ليس لديهم وقت للعب بالألفاظ».

لم تستطع سيسي أن تمنع نفسها من الضحك. وقالت بعد لحظة: «آسفة، فأنا لا أضحك منك، صدقيني، كل ما في الأمر هو أن... حسناً، عندما صعدت إلى القطار، كنت أشعر باكتئاب بالغ، ولكن الآن... آه، أنت جعلتني أشعر بتحسن بالغ».

أنهت الفتاة سيجارتها ثم ألقت بالعقب إلى الأرض وسحقته بقدمها وهي تتابع: «لماذا لا نتعارف إذن؟ اسمي هو جسيكا دفلين. ما اسمك أنت؟».

ـ سيسيلي شامبرز.

ـ تسرني معرفتك يا سيسيلي. هل لديك مانع في أن أدعوك سيسيلي؟ لأن الرسميات تضيّع الوقت.

فقالت سيسي: «أنا موافقة. سنصل إلى ليدز بعد ساعتين. ربما بإمكاننا أن نتناول قهوتنا معاً فيما بعد».

ـ لا بأس.

قالت جسيكا هذا وهي تنقل معطف الفراء إلى المقعد الذي بجانبها ثم تعود إلى الجلوس للتمتع بسفر مريح... كانت العربة خالية تقريباً كما لاحظت سيسي وهي تجيل نظراتها حولها، وعدا عن رجلين كانا جالسين بقرب الباب، وسيدة مسنة كانت غارقة على بعد صفين، في نوم عميق، لم يكن سواهما في

العربة. سألتها جسيكا فجأة: «ألن تسأليني عن سبب سفري إلى الشمال؟».

طرفت سيسي بعينيها ونظرت إليها قائلة: «حسناً، أنا...».

ـ حسناً! ها أنذا أكاد أذوب لهفة لكي أخبر كل إنسان عما أفعله، بينما أنت غير مهتمة، أليس كذلك؟

فقالت سيسي بصدق: «لن أقول هذا».

ـ أتعنين أنك تحبين أن تعلمي؟

فترددت سيسي: «هذا إذا شئت أن تخبريني».

فضحكت جسيكا: «أتصدقين أنني وريثة؟».

ـ وريثة؟

ـ نعم، وريثة. ورثت أعمال أبي ومنزله وحسابه في البنك.

حدقت سيسي فيها: «وهل هذا حسن؟ أعني موت أبيك؟».

أجابت جسيكا راضية: «آه، نعم، فأنا لم أعرفه قط من قبل. وأمي، رحمها الله، لم تخبرني قط من هو أبي. ولكن يبدو أن العجوز أراد أن يقوّم سجله قبل أن يسلم روحه. وكنت أنا ابنته الوحيدة، وبدلاً من أن يورث أمواله لابن أخ أو ابنة أخت، تركها لي، أنا ابنته».

هزت سيسي رأسها.

ـ ولم تكوني أنت تعرفين شيئاً عنه حتى الآن؟

ـ لم أعرف شيئاً حتى اتصل بي محاميه قائلاً إنّ بانتظاري مفاجأة.

قالت سيسي بحيرة:

ـ هذا هو سبب رحلتك إلى ليدز؟

ـ هذا صحيح. لقد اعتاد العجوز على العيش هناك، أو على الأقل، قريباً من هناك، لديه منزل في قرية اسمها بيكرسلي، أو شيئاً من هذا ومعملان في ويكفيلد وبراد فورد.

بدا هذا لسيسي خرافياً، فسألتها: «وأنت ورثت كل شيء؟».

ـ كل شيء.

ـ ولكن، ألم يكن لأبيك زوجة؟

www.elromancia.com

ـ آه، نعم. السيدة «بنتلي». وهذا اسم أبي، آدم بنتلي. وهي، زوجته، ما زالت تعيش في البيت في «بيكرسلي» ولا يمكنني طردها منه، حسب قول المحامي.

عضت سيسي شفتها وسألتها: «هل تريدين أن تفعلي ذلك!».

ـ ألا تفعلين أنت هذا لو كنت مكاني؟

فكرت سيسي لحظة: «لا، لا. لا أظن ذلك. أعني، لا يمكنك أن تلوميها لما... حسناً، لما فعله أبوك».

هزت جسيكا كتفيها.

ـ ربما. وربما لا. هذا يعتمد على معاملتها لي، كما أظن.

ـ ماذا تنوين أن تفعلي؟

ـ أفعل؟

ـ أتنوين العيش معها؟

ـ مع السيدة بنتلي؟ لا. أنا أزورها فقط لترتيب أمر بيع المعملين، ثم أعود إلى لندن في أسرع وقت ممكن.

حدقت سيسي إليها: «ولكن ماذا بالنسبة إلى الموظفين الذين... الذين كانوا يشتغلون لأبيك؟».

ـ ماذا عنهم؟

ـ حسناً، ألا يهمك ما سيحدث لهم؟

أجابت بعدم اكتراث: «وهل هم اهتموا بما حدث لي؟ اسمعي، لقد كان عليّ أن أعيل نفسي طوال حياتي. والآن عليهم هم أن يفعلوا نفس الشيء. لقد أمضيت السنوات الأربع الماضية وراء حاسبة النقود في سوبر ماركت. ولا يمكنك أن تتوقعي مني أن أقلق على أناس لا أعرفهم».

لكن سيسي لم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور بالأسى على أسرة. بنتلي وموظفيها. فقالت بالرغم عنها: «حسناً، لديّ سرير أنام فيه، لكنني غير قادرة على دفع أجرته. ولهذا قدمت طلباً للعمل في الشمال».

فقالت جسيكا: «أنا لا أحسدك لاضطرارك للعيش في الشمال».

وجدت سيسي نفسها تدافع عن بقائها في الشمال.

ـ حسناً، هذا عائد إليك طبعاً، وليس لي فيه شأن. أليس كذلك؟ أما أنا فمتلهفة إلى انفاق بعض المال... الكثير الكثير منه، فلم يكن المال ينقص العجوز، صدقيني...

لم تستطع سيسي أن تمنع نفسها من أن تقول: «ولكن ماذا ستفعل السيدة بنتلي؟».

ـ من يعلم؟ ومن يهتم؟ من الممكن أن يكون لها أقارب يعيلونها. أما أنا فليس لي أحد، عشت دوماً وحدي.

لم تستطع سيسي أن تمنع نفسها من التفكير في أن أسرة بنتلي سيئة الحظ، فهي ستضطر إلى التعامل مع فتاة مثل جسيكا. إنها تتفهم وجهة نظرها. لقد أمضت حياتها تكافح وحدها. ولكن حتى في هذه الحالة، لا تُعد السيدة بنتلي مسؤولة عن سلوك زوجها الأحمق.

ولكن سيسي عادت تحدث نفسها بحزم بأن هذا ليس من شأنها، وحوّلت أفكارها إلى أمور أخرى. وتوقف الحديث بين الفتاتين، وأغمضت سيسي عينيها إزاء وهج النهار وأطلقت لأفكارها العنان.

أيقظتها جسيكا بعد فترة، واضعة المعطف الفرو الثمين على المقعد بجانب سيسي، قائلة: «لديك فسحة خالية أكثر مما لديّ».

قالت هذا مشيرة بيدها إلى الحقيبة وعلبة أدوات الزينة، وكانت تحمل باليد الأخرى صينية فيها كوبا قهوة من البلاستيك وشطائر مغلفة. فوضعتها على المنضدة الصغيرة بينهما، قائلة: «أرجو أن تعجبك شطائر البيض مع المايونيز والجبن. إنني جائعة جداً».

لم تشعر سيسي، وسط ذلك الذهول اللذيذ بين النوم واليقظة، بغير شعر الفراء الحريري يحتك بأصابعها. عند ذلك استوت جالسة في مقعدها وقالت:

ـ هم... أنا جائعة نوعاً ما، وقهوة أيضاً؟ ما أجمل هذا! ولكن يجب أن تدعيني أدفع حصتي.

ـ لا تكوني سخيفة. أنت ضيفتي الآن.

www.elromancia.com

وأخذت جسيكا تبحث في حقيبة يدها عن علبة الدخان مرة أخرى، فأخذت سيبي تنظر إليها وهي تشعل سيكارة ثم تقول: «انتبهي إلى الفراء بجانبك من فضلك. من الصعب عليّ أن آخذه معي».

ابتسمت سيبي وجسيكا تشق طريقها بين المقاعد إلى آخر العربة. كعب حذائها العالي جعلها تزداد تمايلاً مع ترنح العربة.

تحرك معطف الفرو عندما ترنح القطار وهو يدور حول منعطف، واستقر على حجر سيبي، فلم تستطع مقاومة رغبتها في أن تمرّ بيدها على الشعر الحريري تلامسه، متصورة نفسها صاحبة معطف كهذا.

أزاحت أفكارها بحزم، محاولة التركيز على رحلتها. بعد ساعة فقط ستكون هناك، في ليدز، على كل حال.

تنهدت، وتناولت فنجان القهوة. ثم تساءلت كيف ستجد مكاناً تقيم فيه في ليدز، إذا هي حصلت على الوظيفة.

طرحت عنها همومها جانباً والتفتت تنظر من النافذة حيث الخضرة في كل مكان، إنها قادمة إلى الشمال في بداية فصل الربيع على الأقل، وكان يمكن للأمر أن يكون أسوأ لو كان ذلك في فصل الشتاء.

عندما وصل القطار إلى منعطف آخر، أخذ يميل بشكل مرعب. فهرعت سيبي، إلى معطف الفراء، حتى لا ينزلق على الأرض.

وبسبب ذلك، لم تعر اهتزاز القطار المفاجيء، على الفور اهتماماً ولم تدرك أن ثمة شيئاً غير حسن إلا بعد أن سقطت حقيبة أوراقها من الرف فوق رأسها. لقد كانت الرحلة هادئة حتى الآن، ولكن هذا الهدوء اختفى فجأة. وعندما أخذت العربة تميل، تشبثت بمقعدها بعنف.

بدا كل شيء وكأنه يحدث في حلم، فتساءلت عما إذا كانت نائمة. كانت الأحداث تتسارع، وعندما حاولت أن تتحرك، شعرت كأن قوة الجاذبية تشدّها إلى مقعدها. وارتفع على الفور صرير احتكاك الحديد بالفولاذ وانبعثت رائحة حريق غير محتملة، وسمعت صوتاً يصرخ خلفها: «سنصطدم، سنصطدم».

كان حلقها متوتراً تماماً، وفمها من الجفاف بحيث لم تستطع أن تنطق

بكلمة. وبدلاً من ذلك، تحوّلت عيناها إلى جانب الطريق الشديد الانحدار، وقد تملكها شعور بالغ بالعجز التام. كانت العربة على وشك السقوط من فوق هذا المكان الشاهق العلوّ. وصدرت من أعماقها صرخة مكبوحة، وهي تسقط أخيراً من فوق مقعدها بعنف...

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ ظلام . . . ظلام . . .

ـ ستعيش طبعاً!

قالت المرأة ذلك بمرارة، وتابعت بصوت غاضب متوتر.

ـ خمسة أشخاص قتلوا، بما في ذلك الطالبة التي كانت جالسة بجانبها . . . إلا جسيكا دفلين التي عاشت لكي تُذلنا جميعاً!

واستدارت تواجه الرجل الذي كان واقفاً وظهره إلى المدفأة.

ـ لو ماتت لتيسرت أحوالنا جميعاً.

ـ لكنها لم تمت.

قال جايمس بتلي هذا بهدوء، وصوته الهادىء المنضبط، يخالف تماماً صوت أرملة ابن عمه المتفجر حرارة.

ـ عدا تلك الإصابات البسيطة في الرأس، وبعض الجروح والرضوض، فهي بحال جيدة. هذا ما يقوله «لانغلي» على الأقل.

زمت «لورا بتلي» فمها بشدة، وهي تهتف مغيّرة لهجتها: «الأمر لا يهمك، أليس كذلك؟ لا يهمك أن يطردني ذلك السفيه آدم من بيتي!».

تنهد جايمس بتلي، قائلاً: «لا يمكنها أن تفعل هذا. وصية آدم تنص على هذا بوضوح . . .».

قاطعته لورا بعنف: «آه، أعرف، أعرف، أعرف ما تقوله وصية آدم. يمكنني أن أبقى هنا المدة التي أريدها. المدة التي أنا مستعدة فيها لإذلال نفسي أمام جسيكا دفلين!».

تمتم جايمس: «أشك في أنها ستشاركك المنزل، وأنت لست محرومة كلياً، يا لورا، فلديك رأس المال الذي تركه لك أبوك».

ـ وإلى متى يدوم ذلك؟

تغيّر مزاج لورا مرة أخرى، ونظرت من فوق كتفها إلى الشخص الثالث في الغرفة، فتاة تجلس على أريكة خلفها، ثم مالت إليه وهي تقول: «يا عزيزي، أريد أن أراك . . . وحدك!».

هز جايمس رأسه. لم يكن هذا وقت الانغماس في أمور شخصية، خصوصاً و «ليوني» جالسة تنظر إليهما بعينين باردتين مشككتين. وقال: «اسمعي. أرى أن تذهبي لرؤيتها. فليس في جلوسها في المستشفى دون أن يزورها أحد، ما يحملها على الرأفة بك».

شهقت قائلة: «لا بد أنك تمزح، إذا كنت تظن إنني سأذهب إلى المستشفى لأرى تلك الحقيرة الـ . . .».

ـ ألم يحن الوقت لذهابنا، يا أبي؟

اختارت «ليوني» تلك اللحظة للتدخل. ولأول مرة يشعر جايمس بالسرور لمقاطعة ابنته لهما. لم يكن يرضى في العادة أن تظهر كراهيتها لزوجة ابن عم أبيها بوضوح. لكنه الآن بدا متجهاً لهذا العذر لكي يذهب. ذلك أن لورا لا تطاق وهي في مزاجها هذا.

لكنها هتفت بعصبية:

ـ لا يمكنك هذا، لا بد أن بإمكاننا أن نفعل شيئاً، شيئاً يمنعها من أن تدمّر كل ما عمل آدم لأجله، لا يمكنني أن أصدق أن هذا ما كان يريده، ألا يمكنك أن تتحدث إليها؟ ألا يمكنك أن تجعلها تتعقل؟

ـ هذا شيء لا يتعلق بأبي، أليس كذلك؟

قالت ليوني هذا وهي تقف بجانب أبيها، ثم تابعت تقول: «إنه لا يريد ذينك المصنعين الكريهي الرائحة».

توترت شفتا لورا: «في الحقيقة يا ليوني، لست بحاجة إلى رأيك، وشكراً. أبوك يعلم جيداً أنه بصفته عميد الأسرة، فإن من جملة اهتماماته، أن يمنع هذه

www.elromancia.com

الفتاة من بيع أملاك الأسرة».

فقالت ليوني: «حسناً، أنا لا أفهم...».

قاطعها أبوها بهدوء: «سأعالج الأمر يا ليوني. اذهبي أنت وأخبري مديرة المنزل السيدة «أوش» بأننا لن نبقى لأجل الشاي».

ترددت ليوني، لكنها، وهي في الخامسة عشرة، ما زالت صغيرة بما يكفي لكي تخالف مشيئة أبيها. فتمتمت: «لا بأس».

وألقت على لورا نظرة شاردة ثم اندفعت خارجة من الغرفة.

ـ تلك الطفلة...

همّت بقول المزيد حالما صفقت الفتاة الباب خلفها، لكن ملامح وجه جايمس أوقفتها عند حدها. وبدلاً من ذلك استغلت فرصة خروج الفتاة، واقتربت من ابن عم زوجها، وقالت بصوت خافت: «أحبك».

وكان عليه أن يتذكر أين هو..

ـ جايمس، أواه يا جايمس. أنا بحاجة إليك. متى ستعترف بأنك تريدني قدر ما أريدك؟

همهم متجنباً الرد عليها، ووضع المدفأة بينهما.

ـ إلى حين موت آدم، كان يبدو عليك المقدرة التامة على العيش من دون هذا الحب.

ـ هذا غير صحيح يا عزيزي....

ـ بل صحيح. وبالرغم من كل شيء آخر، أنا لن أجعل من موته مثاراً للسخرية وعدم الاحترام.

ـ ولكن، ماذا عني أنا؟ ألم يجعل مني موضعاً للسخرية؟

تنهد جايمس، ثم رمق زوجة ابن عمه: «ربما كان عليك أن تطلبي منه الطلاق. على أية حال، أنت حرة الآن على الأقل».

فقالت بعنف: «حرة ومفلسة».

لكن ملامحه لم تتغير. تناول سترته عن الكرسي فلبسها ثم توجه نحو الباب وهو يقول: «أنت دوماً تبالغين. أليس كذلك يا لورا؟».

سكت لكي يفتح الباب ثم عاد يقول: «اتصلي بي بعد أن تتحدثي إلى تلك الفتاة دقلين، أنت تعرفين أين تجدينني».

ـ انتظر.

وتقدمت نحوه بسرعة، وترنحت قليلاً على كعب حذائها العالي. ثم تابعت تقول ضارعة:

ـ أرجوك يا جايمس. ألا يمكنك أن تذهب وتراها بنفسك، يا عزيزي؟ إذا لم تفعل هذا لأجلي، فإفعله لأجل ابن عمك آدم؟

نظر إليها عابساً، وعندما لم تشعر لورا بفائدة، غيرت أسلوبها قائلة: «ولأجل الرجال الذين يعملون عند آدم، يا جايمس. هل أنت مستعد لأن تتركهم يواجهون خسارة أعمالهم إذا كان بإمكانك منع ذلك؟».

توتر فك جايمس: «هذا ابتزاز يا لورا».

ـ لا...

ترددت ثم قالت: «مجرد شيء يشبه ذلك، يا عزيزي، أرجوك، افعل هذا لأجلي... ولأجل... آدم».

* * *

انتبه جايمس على الفور إلى نظرات ابنته إليه وهما يبتعدان بالسيارة عن المنزل، فاسترخت أصابعه على عجلة قيادة سيارة المزرعة. كان يعلم أن ابنته لن توافق على تصرفه ذاك.

وعندما خرجت السيارة من البوابة المؤدية إلى «هوغيت» سألته:

ـ لماذا فعلت ذلك يا أبي؟ أنت تعلم بأنها لا تهتم مثقال ذرة بموظفي بتلي؟ إنها فقط بحاجة إلى وقت لتستعيد المال. لقد سمعتها بعد الجنازة تسأل السيد لانغلي المحامي إذا كان بالإمكان تغيير وصية آدم...

قاطعها أبوها بلهجة قاطعة جافة يحذرها من تجاوز حدودها: «ليوني، هذا يكفي. وعندما احتاج إلى نصيحتك، سأطلبها منك».

ـ ولكن يا أبي...

ـ قلت هذا يكفي، يا ليوني.

www.elromancia.com

- ولكن لماذا لا تريد أن تسمعني . . .

- أنت لا تفهمين الأمور. أولاً لأنك ما زلت صغيرة، وثانياً لأنك متحيزة غير محايدة.

فقالت وهي ما تزال متجهمة الملامح: «متحيزة؟ لأنني لا أحب السيدة لورا؟».

- هذا شيء من أشياء.

- وما هي الأشياء الأخرى.

- كما قلت لك، أنت أصغر من أن تفهمي هذه الأمور.

فقالت وهي تحني رأسها: «لا، أنا لست صغيرة. أنا أعرف هذه الأمور. أنا لست ساذجة تماماً، يا أبي».

فلوى جايمس شفتيه: «ماذا يعني كلامك هذا؟».

احمرت وجنتا ليوني الشاحبتان، قليلاً: «أعلم أن لورا لا تستطيع أن تكفّ مخالبها عنك!».

- ليوني!

- نعم، هذا صحيح، وأنا أتساءل عما تراه في هذه الجثمة الخبيثة!

- ليوني!

هذه المرة نطق باسمها بغضب بالغ، فتراجعت عن تهجمها البالغ وابتعدت عن أبيها قدر إمكانها.

كان جايمس يحاول التركيز على قيادته، مدركاً أن علاقته مع ابنته أصبحت مرة أخرى في خطر. ليت ليوني تندمج مع لورا! ولكن ليوني، منذ البداية، تجنبت جهود لورا لعقد أواصر الصداقة معها. ولكنه لا ينكر أن لورا لم تظهر قط حناناً حقيقياً نحو الفتاة.

تنهد جايمس وهو يلقي نظرة قصيرة على ابنته. إنها فتاة حساسة، سريعة الغضب. طويلة بالنسبة إلى عمرها، لكنها ما زالت نحيلة الجسم جداً. . يكسو وجهها حب الشباب الذي يبدو أنه لن يتلاشى. وطبعاً، كانت لهذا خجولاً فهي تقارن شعرها الداكن البسيط وملامحها العادية بجمال لورا الأشقر. كان

مستحيلاً تقريباً أن يجعلها مهذبة كلما كانت لورا موجودة. وتساءل كيف كانت «أيرين» أمها ستصنع معها. . . لكن والدة ليوني ماتت أثناء ولادتها لها. لذا لم تعرف أمها قط.

شعر بالعطف عليها، فمد يده يلامس وجنتها بإصبعه برفق: «لا بأس، ستتوقف عن محاولة إقناع بعضنا البعض. أما الآن. . .».

وعاد بانتباهه إلى الطريق الملتوية.

- فلنفكر في اسم لمهر «مينستريل» الحديث الولادة، هل لديك فكرة؟

مضت لحظة ظن فيها أنها لن تستجيب إلى محاولته الصلح بينهما، ولكنها ما لبثت أن قالت بصوت خافت: «لم أفكر في ذلك».

فقال بشيء من الارتياح: «ربما عليك أن تفعلي إذن. يجب أن يتم هذا خلال أيام، أليس كذلك؟ يقول «تيد» إنه سيكون ناجحاً في السباق».

فقالت: «هل تظن هذا المهر الذي ستعيده من «أدنبره» سيكون حسناً، أنت أيضاً؟».

- أرجو ذلك.

قال جايمس هذا، مدركاً، بشيء من التشكك، أنه سيؤجل رحلته إلى «ادنبره» ليحقق وعده للورا.

- هل يمكنني المجيء معك؟

قالت ليوني هذا فجأة، وبما أن افكار جايمس تحولت إلى أشياء أخرى، بدا عليه عدم الفهم. فهتفت وعيناها على وجهه وقد تكهنت بظنه: «إلى أدنبره. ماذا ظننت؟ إلى المستشفى؟».

توترت شفتا جايمس

- ظننت أننا اتفقنا. . .

- على أن لا نتحدث عن الأمر. أعرف هذا. هل هذا يعني أنك ستذهب لرؤية تلك الفتاة؟

فقال وهو يتنهد: «ربما. يجب أن يذهب أحد إليها».

قال هذا متردداً، فسألته: «ولماذا».

www.elromancia.com

- ولماذا لا؟

- حسناً... هي ليست بالضبط... أنت تعلم.

- لا. أخبريني أنت. هي ليست ماذا؟ إنها من الأقارب قبل كل شيء. هل فكرت في هذا؟

فعبست ليوني: «هل تصدق ذلك؟».

- آه، لا شك في ذلك. لقد حصل آدم على كل الأدلة الضرورية.

- ولكن لماذا لم يعترف بها قبل الآن؟

- من يدري؟ ربما لأنه لم يرد أن يؤلم لورا.

- يؤلمها؟

قالت هذا بلهجة لاذعة، وعندما التقت عيناها بعيني أبيها غيّرت لهجتها، وقالت: «ربما كان يرجو الحصول على وريث شرعي».

ابتسم لها جايمس لاوياً شفتيه، وكان قد سبق له التفكير في نفس الشيء، وقال: «ربما أنت على صواب».

فقالت: «على كل حال، لا أظنني أحب التعرف عليها. إنها تريد أن تبيع أملاك بتلي، وهذا يجعلها مثل لورا تماماً».

نظر جايمس إليها وقال: «أنت لا تكفّين عن هذا، أليس كذلك؟».

فنظرت إليه بقنوط: «أنا فقط لا أرى...».

فقاطعها بقوله: «هذا صحيح. أنت لا ترين، والآن دعينا نغيّر الموضوع».

* * *

ذهب جايمس إلى المستشفى عند العصر. كان قد تحدث إلى «نوبي لانغلي»، محامي الأسرة، في الصباح الباكر وتأكد أن زيارته لابنة ابن عمه الراحل لن تجرح الفتاة. فقد قال له بأسف: «إن الفتاة في حالة ذهنية سيئة. وكأن الاصطدام لم يكن كافياً، فإذا بها تفقد ذاكرتها».

قطب جايمس حاجبيه: «فقدت ذاكرتها؟».

- نعم، ألم تخبرك لورا؟ هذا يحدث غالباً نتيجة مثل هذه الحوادث، كما يبدو. وحادث الاصطدام هذا كان عنيفاً كثيراً.. سمعت أن الفتاة التي

حوصرت في الحمام قد احترقت كلياً. يظنون أنها كانت تدخن. و...

فقاطعه جايمس لأنه لا يريد أن يشاركه ذكرى الحدث المؤلم.

- نعم. أنا واثق من أن الأمر كان هائلاً.

- تظن أن زيارتي قد تساعدها. هل أخبرها من تكون وماذا تفعل هنا؟

- عليك أن تسأل طبيبها عن هذا، طبعاً. لكنك لست بحاجة إلى أن تخبرها من تكون، فقد سبق أن عرفت هذا.

- عرفت ذلك؟

- نعم، فقد عرفوا هويتها على الفور من الصور وجواز السفر الجديد الذي وجدوه في حقيبة يدها. وإذا كان ثمة حاجة إلى براهين اكثر، فهناك فراء السمّور الذي كانت تتشبث به كحبل النجاة.

- ولكن، ألم تكن غائبة عن الوعي؟

- نعم، ويبدو أن الشيء الوحيد الذي تتذكره هو التشبث بالمعطف.

بدت السخرية على وجه جايمس: «يبدو أنها ظريفة».

قال المحامي بدهشة: «أعتقد ذلك. لم أتحدث إليها، فطبيبها، وهو الدكتور بائل بالمناسبة، نصح بعدم إجراء أي حديث رسمي معها عن سبب دخولها المستشفى، حتى تعود إليها ذاكرتها. لكنني تحدثت إلى إحدى الممرضات فقالت إنها مريضة حسنة السلوك. وأنت، على كل حال، ابن عم أبيها، فقد تحب أن تراك حتى ولو لم يخبرها آدم عنك».

النتيجة كانت أن جايمس ذهب إلى مقابلتها بدون حماس، لأن مقابلة فتاة ضعيفة أفقدتها الصدمة ذاكرتها، لم تكن مثل مقابلة فتاة أنانية تبحث عن الذهب كما أخبرته لورا. كانت المستشفى في «ليدز» فسيحة للغاية. أرشدته ممرضة الاستقبال في الطابق الأسفل إلى القسم الذي تقع فيه غرفة جسيكا دقلين، وبعد أن قدم نفسه إلى مسؤولة القسم، أرسلته إلى قسم صغير خاص فوجد الفتاة مستلقية على سريرها.

لم يستطع أن ينكر موجة العطف التي تملكته عندما رأى الفتاة مستلقية بين ملاءات المستشفى البيضاء. لقد توقع أن تبدو أكبر سناً وجسامة وأكثر خبرة من

www.elromancia.com

هذه الفتاة الشاحبة الوجه. فلدى سماعها الباب، وجهت نحوه عينين حذرتين. كانت صغيرة السن.. إثنان أو ثلاثة وعشرون عاماً على الأكثر. قالت له لورا إن رجال الشرطة أخبروها بأن لها شعراً أشقر، ربما هو مصبوغ وأن لها عينين زرقاوين. ولكنهما كما رآهما في الواقع، أقرب إلى اللون البنفسجي. لم تكن كما وصفتها به لورا.

الممرضة المسؤولة، واسمها «جينين»، كما عرف جايمس، اقتربت أولاً من السرير، وسوّت الملاءة برفق وهي تقول مخففة عنها: «لديك زائر يا جسيكا. إنه ابن عم أبيك».

ونظرت إليه.

- هل قلت إن اسمك «جايمس بتلي؟».

أومأ جايمس، فعادت الممرضة تنظر إلى المريضة: «نعم، ابن عمك جايمس هنا جاء ليراك، يا جسيكا. أليس هذا حسناً؟ ربما ستتذكرينه؟».

- آه، لا أنا...

همّ جايمس بالكلام ثم عاد فسكت. ستتعقد الأمور إذا حاول أن يوضح الوضع. كما أنه لا يريد أن يفضح سرّ الأسرة في المدينة. وأخيراً، عندما حولت الممرضة إليه عينيها مستفهمة، رفع يده بأدب، يحييها: «لا... استمري أنت».

وبلل شفتيه متوتراً.

- مرحباً يا جسيكا، كيف حالك؟

* * *

لم يكن شيئاً غريباً، هذا الذعر الذي اجتاح كيانها. فما حدث، حدث منذ أيام قليلة فقط... ومن الغريب أنها تتذكر ذلك، ولا شيء غيره... ولكن الرجل... الغريب الذي جاء إلى هنا قد يكون مدعياً أنه ابن عم أبيها... وهذه الفكرة ملأتها بالحذر. من الممكن أن يكون أيّ شخص. ربما هو محتال، بل ربما يكون مجرماً.. كيف ستعلم؟ في هذه اللحظة انتصبت الممرضة قائلة:

«سأترككما وحدكما عدة دقائق».

وتجاهلت نظرة الذعر في عيني جسيكا وهي تتابع: «سأكون خارج الغرفة».

وابتسمت لمريضتها مشجعة.

حاولت جسيكا أن تتمالك نفسها وهي تبتلع ريقها بصعوبه، ولكن لماذا يكذب هذا الرجل؟ وماذا يفيده هذا؟ إنها ليست رائعة الجمال. وهذا شيء لم يستطع ذهنها أن يخفيه. لقد نظرت في المرآة طويلاً. وأدركت أن ملامحها عادية في أحسن الأحوال.

قال الرجل: «يجب أن لا يبدو عليك كل هذا الخوف، فأنا لا أعض، أؤكد لك هذا».

استطاعت جسيكا أن تبتسم مترددة وقالت: «لا».

فتقدم جايمس ووقف عند نهاية السرير: «آسف لأنني أخفتك. لم أكن أقصد هذا».

هدأت خفقات قلب جسيكا قليلاً، وتمتمت لاهثة: «كل هذا... كل هذا غريب جداً. أرجوك... أن تجلس».

جلس جايمس على كرسي عند نهاية السرير، وكانت هي تنظر إليه، محاولة جهدها أن تجد شيئاً مألوفاً في ملامحه الطيبة. أثارتها وسامته، وجاذبيته البالغة. كان طويلاً أشعث يتدلى شعره على جبهته أما جسمه القوي فقد كان رشيق الحركات متناسقاً ووجدت لون شعره داكناً وبشرته سمراء، وكأنه لم يمض حياته في مكتب. وكانت في زاويتي عينيه الفضيتين تغضنات دقيقة. إلا أنها عرفت أن سببها عمله في ذروة النهار في الخارج أما ملابسه فهي عفوية، عبارة عن بنطلون ضيق وسترة جلدية قديمة. وبدا لها أصغر من أن يكون ابن عم أبيها بأية حال، وبما أن اسمه مختلف عن اسمها، فلا بد أنه زوج عمتها. كان الدكتور بائل، قد أخبرها بأن أمها قد توفيت منذ زمن، وأن أباها قد قضى نحبه مؤخراً، وأنها كانت في القطار القادم إلى الشمال لترى أعضاء الأسرة الآخرين، عندما حصل الاصطدام.

www.elromancia.com

- تقول ممرضتك إن حالتك تتحسن.

وأرغمت جسيكا نفسها على التصرف بشكل طبيعي. فقالت: «نعم. عدا بعض الأورام والرضوض أنا أشعر بتحسن كبير. وفي الواقع، نهضت من السرير هذا الصباح لمدة ساعتين، وبرأي الدكتور باتل سأتمكن من الخروج من المستشفى بعد أسبوع. أليس هذا غريباً؟ أنا أعرف من هم الأطباء وما هي المستشفى... واتذكر حتى... قطارات، وأشياء كهذه. لكنني لا أتذكر شيئاً عن نفسي».

وارتفع صوتها قليلاً، فاضطرت إلى تخفيضه.

- تلك حماقة، أليس كذلك؟ أنا أشعر حقاً بأنني محتالة مخادعة.

قال جايمس يطمئنها وهو ينظر إليها بإمعان من بين أهدابه الكثيفة.

- ذاكرتك ستعود وعلى حد علمي، من المعتاد كثيراً أن يفقد الشخص ذاكرته بعد حادث عنيف، والاصطدام كان عنيفاً للغاية. ثقي بما أقول.

تنفست جسيكا بشيء من الارتياح، وسألته: «أتظن ذلك؟».

- بل أؤكد ذلك.

- ولكن أليس صحيحاً أيضاً أن الإنسان لا يفقد ذاكرته كلياً؟ أعني... يمكنني أن أفهم لو نسيت ذلك الاصطدام، وماذا حدث قبله مباشرة. ولكن.

وارتفع صوتها مرة أخرى.

- لا أتذكر كل شيء، وليس شيئاً واحد فقط. أليس هذا غريباً؟

تهدج صوتها في الكلمات الأخيرة، وأشاحت بوجهها جانباً على الوسادة لإخفاء دموعها التي تدفقت عند شعورها بالوهن، وأخذت تعنف نفسها بفروغ صبر. إنها لا تبدو وكأنها وحيدة تماماً في هذا العالم. من الواضح أن لديها أبناء عم، وربما لديها أقرباء آخرون ستقابلهم. وبعد أن مسحت دموعها الخائنة بيدها، عادت تلتفت إليه فوجدته ينظر إليها بحذر. وعندما وجدت أن ملامحه قد خلت من أي نوع من العطف، اندفعت تسأله: «أما كان ينبغي أن أتذكرك».

يبدو أنها أربكته الآن، فغيّر من جلسته ومال نحوها. ووضع ذراعيه على

فخذيه ثم أجاب بسرعة: «ماذا تظنين؟».

ابتلعت ريقها وقالت متلعثمة: «ماذا... ماذا أظن؟ لا أدري ما تعنيه».

استوى في جلسته ونظر إليها لحظة دون أن تطرف عينيه ثم قال: «لا، لا أراك تدرين. حسناً، الأمر معقد تماماً أليس كذلك؟ أعجب لما ستحاول لورا أن تفسر ذلك».

احست جسيكا بمزيد من الإثارة وقالت: «لورا؟ أتراها قريبة أخرى؟».

- أرجوك، ألن تخبرني عن أسرتي؟ لقد كان الدكتور باتل غامضاً من هذه الناحية، وأنا حقاً أريد أن أعلم.

فسألها جايمس مقطباً: «ما الذي أخبرك به الدكتور باتل بالضبط؟».

بللت شفتيها بلسانها وقالت بحذر: «أخبرني بأن أبويّ قد توفيا. ماتت أمي منذ بعض الوقت لكن أبي مات حديثاً. أنت... أظنك قريب عمتي».

ضاقت عينا جايمس: «لماذا تظنين هذا؟».

سألها متشككاً وكأنها قالت شيئاً خطأ. فقالت باحتراس: «حسناً، لأن اسم أسرتينا مختلفين. أخبرني الدكتور باتل أن اسم أسرتي هو دقلين».

بدا شيء من الاسترخاء على جايمس وقال: «آه».

وسكت إلى أن تمنت جسيكا لو أنها لم تلق هذا السؤال.

لم يحلّ وصول الدكتور باتل شيئاً. ويبدو أن الممرضة أخبرته بأن هناك زائراً ما فبدا متلهفاً إلى أن يتحدث إليه وإلى أي شخص يتعرف إلى مريضته. سأله الطبيب الهندي الأنيق: «تقول الممرضة إنك السيد بتلي، أليس كذلك؟ أنا مسرور جداً لمقابلتك. هل هذا يعني أننا سنخسر مريضتنا قريباً؟».

بدا جايمس وقد فوجيء قليلاً: «أرجو المعذرة..؟».

- حسناً، أنت قريبها، أليس كذلك؟ فهمت من الممرضة أنك ابن عم والد الآنسة دقلين. أنا مسرورة جداً لرؤيتك.. ربما بإمكاننا أن نتحدث عدة لحظات قبل أن تغادر المستشفى، هل ستقيم مريضتي معك؟

بدا جايمس وكأنه يهم بقول شيء، ثم رأى نظرات جسيكا القلقة فغيّر رأيه وقال بدلاً من ذلك.

www.elromancia.com

- حسناً جداً.

وحتى مغادرة الطبيب، أخذ الرجلان بالحديث عن النواحي غير الشخصية لجسيكا. فشعرت بأنهما يعاملانها وكأنها طفلة. ليت بإمكانها فقط أن تتذكر! أخذت تفكر بقنوط وهي تنظر إلى هذا الرجل قريبها.

خرج الرجل، الذي يزعم أنه ابن عم أبيها، مع الطبيب. كانت تتمنى لو ألقت عليه مزيداً من الأسئلة، ولكن وصول الطبيب، جعل من المستحيل تبادل أي شيء ما عدا الحديث في الأمور السطحية.

* * *

بعد ذلك بيومين، كانت حالة جسيكا قد تحسنت إلى حد تمكنت معه من قضاء معظم النهار خارج السرير، وكانت تمضي معظم الوقت جالسة على كرسي بجانب النافذة... كان الجوّ دافئاً... خلافاً لعادته في هذا الفصل، كما كانت تعلم ولكنها تساءلت مرة أخرى عما يجعلها تتذكر أشياء بينما تبقي أشياء أخرى غامضة. عندما بحثت في حقائبها وجدت معطفاً منزلياً وقميصاً. فأحست بأنهما متلائمان. شعرت بشيء من الإلفة نحوهما وكأنهما يخصانها، ومع ذلك كان عليها أن تعترف أن طراز ملابس النوم لم يبد لها مألوفاً. وعلى العكس من ذلك، فقد بدا لها المعطف الفرو مألوفاً بشكل غامض، أو ربما لأنها عرفت أنها كانت متمسكة به عندما عثر عليها، ومهما كان الأمر، الملابس هي ملكها، لا شك في ذلك. وربما عندما تعود إلى ارتدائها، سيتغير شعورها نحوها.

كانت تجلس إلى النافذة عندما دخلت ممرضة صغيرة السن تخبرها بأن زائراً قد قدم إليها.

هل هو جايمس بتلي؟ سألتها جسيكا ذلك على الفور، آملة أن يكون هو.

ولكن الشخص الذي دخل الغرفة لم يكن ابن عم أمها بكل تأكيد. بل امرأة. امرأة صغيرة الحجم، لذيذة، ناعمة، ذات شعر ذهبي أبيض مجعد يحيط بملامح مصبوغة بلون وردي. وكانت ترتدي طقماً أبيض من «الشاموا» محكم الالتصاق بجسمها، وتنتعل حذاء عالي الكعبين إلى درجة ارتابت معها جسيكا

في أن بإمكانها السير به، ولكن لا يمكن لأحد بأن يشكك في قوة شخصيتها. ترددت جسيكا، ثم وقفت وقد تملكها التوتر، قائلة: «أنا... هل المفروض أنني أعرفك؟».

وعندما لم تسارع المرأة إلى الكلام، عادت تقول: «آسفة لأنني لا أتذكر».

حدّقت المرأة إليها تقيّمها.

- أنا لورا بتلي. لا بد أن «جيمي» حدثك عني.

- جيمي؟ آه، تعنين جايمس بتلي.

وهبط قلب جسيكا. لقد تحدث عن امرأة اسمها لورا، لكنها ظنتها أكبر سناً. ورفعت لورا حاجبيها.

- إذن، هو لم يخبرك. كنت أعلم أنه لن يفعل. يا عزيزتي، أنا... أنا كنت زوجة أبيك. آدم بتلي كان زوجي. هذا هو النسب الوحيد الذي يبني وبين جيمي.

يبدو أن الممرضة رأت أن لا حاجة إليها، فخرجت بسرعة، وتمنت جسيكا لو تفعل مثلها. ماذا تعني هذه المرأة بأنها زوجة أبيها؟ لقد سبق أن أخبروها أن أمها ميتة، وهذه المرأة أصغر من أن تكون أمها.

- زوجته...؟

وجاهدت في أن تتفهم حقيقة أن أباها قد تزوج مرتين.

- فهمت. أنت زوجته الثانية... آسفة. أنا فقط...

فقالت لورا وهي تخلع قفازيها: «أنا لست زوجة أبيك الثانية. اسمعي. لماذا لا تجلسين؟ لأن ما سأقوله الآن قد يصدمك».

عادت جسيكا إلى الجلوس بشيء من السرعة، بينما كان عقلها يحاول أن يستوعب ما كانت لورا تقوله. ماذا تعني أنها ليست زوجة أبيها الثانية؟

نظرة التفهم في عينيها أرضت زائرتها، فقالت: «أرى أنك قد فهمتني. وبكلمات واضحة، أنت ابنة غير شرعية، يا آنسة دقلين. وليس لك الحق أبداً في أملاك آدم بتلي».

تملك جسيكا الصداع وهي تجاهد في التحكم بالذعر الذي تملكها. لم تكن

بحاجة إلى استعادة ذاكرتها لكي تعلم أن هذه المرأة تكرهها.

ـ حسناً، أليس لديك ما تقولينه عن نفسك؟

قالت لورا هذا وهي تقترب لتقف مشرفة عليها. وتملك جسيكا إحساس بالخوف. ليتها فقط تبتعد عنها! أخذت تفكر في ذلك وقد أوشكت على الإغماء. ليتها تسمح لها بتنشق شيء من الهواء! وكلعبة تقطعت خيوطها في مسرح للدمى، تهاوت جسيكا على الأرض...

استيقظت لتجد الدكتور باتل منحنياً فوق سريرها، مربتاً على خديها برفق وإلحاح. وعندما فتحت عينيها قال: «وهكذا عدت إلينا، يا آنسة دقلين. كان عليك أن تعودي إلى سريرك عندما شعرت بالتعب».

طرفت جسيكا بأجفانها وقد عاد وعيها، وشعرت بجفاف في فمها وعيناها تجولان في أنحاء الغرفة.

لكن المرأة كانت قد رحلت. لم يكن في الغرفة سوى الطبيب وتلك الممرضة الصغيرة. مهما كان ما تريده لورا بتلي، فقد غادرت صفر اليدين. وتمنت جسيكا من أعماقها ألا تعود.

قالت لها الممرضة الصغيرة وهي تسوّي ملاءة السرير فوقها: «ما كان لي أن أسمح لها بالدخول دون إذن من الممرضة المسؤولة. ولكنها بدت وكأنها تعرف طريقها إلى الغرفة، فلم أعرف ما أفعل».

ـ لا بأس. كنت سأقابلها عاجلاً أم آجلاً.

وأضافت لنفسها أن الشيء الوحيد الإيجابي في الأمر هو أن لورا بتلي، ليست... ليست زوجة جايمس بتلي. ولكن لماذا لم يشأ هو أن يوضح من تكون بالضبط؟

وفي مساء اليوم التالي، جاءت إليها رئيسة القسم «جينين» فوجدتها في غرفة الجلوس.

وكانت وحدها باستثناء رجل عجوز.

ـ ها أنت ذي هنا!

وقفت الممرضة المسؤولة بجانبها باسمة، لكن جسيكا لم تستجب إلى

ابتسامتها، فقد أخذت تتساءل بقلق عما تريده...

ـ هناك شخص يريد أن يراك.

تصلب جسم جسيكا: «من يكون؟».

أجابت الممرضة بنعومة: «ذلك السيد الرقيق السيد بتلي. تعالي. أنت لا تريدين أن تدعيه ينتظر، أليس كذلك؟».

ترددت جسيكا. ذلك أن حماستها لرؤية أعضاء من أسرتها، بعد زيارة لورا لها، قد خمدت بشكل كبير. وبما أن هذا الرجل كان نسياً للورا، فهذا يعني أنه كان يعلم بتلك الزيارة أيضاً.

عادت مع الممرضة جينين إلى القسم الخاص الذي أصبح في ما يبدو، المكان الوحيد الذي تألفه. كانت ركبتاها ترتجفان. ومنذ زيارة لورا بتلي لها، حاولت ألا تفكر في ما ستفعله عندما يحين وقت مغادرتها هذا المكان.

قبل ذلك الإفشاء القاسي لظروف مولدها، كان طبيعياً أن تفترض أنها عندما تصبح مؤهلة صحياً لمغادرة المستشفى، ستعود إلى حيث كانت تعيش قبل ذهابها إلى لندن. ولكن معرفتها بأنها ابنة غير شرعية قد غيّر هذا كله. والآن لماذا عاد جايمس بتلي؟ هل ليسلمها إنذار الأسرة؟

كان ينتظر، كما قالت الممرضة، في غرفتها، واقفاً بجانب النافذة، لكنه سمع وقع خطواتها عند دخولها، فاستدار ليواجهها بنفس التعبير الحذر الذي تتذكره.

ـ مرحباً.

أجابت باختصار لم تستطع مقاومته: «مرحباً».

ما الذي يفعله هنا؟ ماذا يريد؟

ـ ستكونين على ما يرام، أليس كذلك؟

كانت الممرضة جنينين قد لاحظت نقص الحرارة بينهما. وبما أن جسيكا لم تكن تريد إجراء أي حديث أمامها، أومأت بسرعة قائلة لها بابتسامة مرغمة: «شكراً».

فهزت الممرضة كتفيها: «حسناً، إذا أردتني تستطيعين مناداتي فسأكون في

هذا الممر».

وألقت على جايمس نظرة متفحصة.

جذبت الباب خلفها لكنها لم تغلقه. وعندما تقدم جايمس نحو جسيكا، تجمدت هذه حذراً. لكنه لم يلمسها بل مرّ بها فقط ليغلق الباب تماماً وهو يقول: «أظن أن بإمكاننا أن نكون وحدنا قليلاً، أليس كذلك؟».

هزت جسيكا كتفيها والتفتت قليلاً إليه. كان المساء دافئاً، وقد ثنى كمي قميصه فوق ساعديه المفتولي العضلات. لم يكن مظهره يقارن بأناقة لورا بتلي، لكنه لا يقل عنها حنكة وخبرة وربما يتفوق عليها خطورة.

ـ ألا تريدين أن تجلسي؟

كان ينظر إليها ببرودة ومع أن جسيكا أرادت أن تفعل ذلك بالضبط، بقيت واقفة. وقالت وهي تحكم أطراف معطفها الحريري حولها:

ـ أنا بخير هكذا. ماذا تريد؟ ولماذا جئت؟

التوت شفتاه إما إذعاناً، وإما سخرية وقال وهو يضع يديه في جيبي بنطلونه: «من الواضح أنك تشعرين بتحسن، ألم تتذكري شيئاً بعد؟».

تنفست جسيكا بثبات، قائلة: «لا. ألم تخبرك زوجة ابن عمك؟ لا أصدق أنك لم تعلم بزيارتها».

أجاب بخشونة: «مجيء لورا إلى هنا أمر لا علاقة لي به. كما أنني لم أعلم بذلك، إلا بعد أن انتهت. وأنا آسف إذا كدّرتك لورا هكذا. فهي تتصرف باندفاع دائماً».

فارتجفت جسيكا وقالت: «هل هذا ما تسمي ذلك؟».

أجاب متنهداً: «اسمعي. لورا لا تتعمّد الخبث أو سوء القصد. إنها فقط... حسناً، لقد صُدمت فقط. كلنا صُدمنا».

حدقت جسيكا إليه غير مصدقة: «أتحاول أن تخبرني أن لورا بتلي لا تهتم بي سواء أمتّ أم بقيت على قيد الحياة؟».

فقطب جبينه: «آسف لأنني لم أفهم ما تعنين».

فقالت بسرعة وهي ترتجف: «الاصطدام. أليس هذا ما كنت تتحدث

عنه؟».

توتر فم جايمس: «لا، لا. ليس هذا. كنت أتحدث عن واقع أن... حسناً، أن أياً منا لم يكن يعلم بوجودك إلا بعد أن مات ابن عمي».

* * *

www.elromancia.com

٣ ـ لست جميلة . . . ولكن

ـ فعلت ماذا؟

كانت ملامح لورا بتلي مضطربة للغاية فهز كتفيه: «هل تريدين مني حقاً أن أكرر ما قلت؟ حسناً، لقد دعوت ابنة آدم للإقامة عندي في «أسبن» إلى أن تصبح قادرة على رعاية نفسها مرة أخرى. إنه أقل ما يجب أن أفعله بعد تهجمك البليد ذاك».

قالت ساخطة: «لا أصدق هذا. جايمس، الفتاة مغتصبة أملاكنا! أظننا اتفقنا على أن نقوم بكل ما في إمكاننا لكي نغيّر وصية آدم».

فرد عليها بحدة: «أنت اتفقت أما أنا فلا. ما كان عليك أن تذهبي إلى المستشفى يا لورا، هذا هو السبب الذي جعلني أذهب».

واجهته لورا عبر مكتبه الضخم، وسألته: «أنت قلت إن الفتاة فقدت ذاكرتها. كل ما فعلته أنا هو انني أخبرتها بالحقيقة. . . ».

ـ وأيقظت شكوكها في أسباب ذهابي لرؤيتها، يا لورا. إنها خارجة لتوّها من اصطدام خطير. أليس لديك شيء من العطف؟ ليس ذنبها أن زوجك هو أبوها.

فرفعت رأسها: «وليس ذنبي أنا أيضاً».

قال موافقاً: «لا، لكن الواقع يبقى أنك، عندما مات آدم لم تصبحي أرملة حزينة، حتى سمعت بوجود جسيكا دقلين. هذا هو الأمر».

ـ آه، يا جايمس. هذا كلام قاسٍ منك.

أجاب متجافياً: «لكنه صحيح. آسف يا لورا، هل تظنين أنك ستجنين شيئاً إذا أنت أصررت على جعل الفتاة عدوّتك؟».

ـ لا أظنك تتوقع مني حقاً أن أجعلها صديقة لي.

ـ ولماذا لا؟

فشهقت: «لماذا لا؟ كانت قادمة إلى هنا فقط لترى أملاكها التي ستبيعها وهي لم تهتم مثقال ذرة بالتقاليد التي وضعها أبوها وجدها. . كانت فقط تريد أن تعرف كم. . . كم تجلب لها من مال».

أومأ جايمس قائلاً: «أعلم هذا».

ـ تعلم؟ لماذا تطلب مني إذن أن أكون مهذبة معها؟ لماذا عليّ أن أكون مهذبة مع شخص ينوي أن يلقي بي إلى الشارع؟

فقال بهدوء: «هذا غير صحيح».

ـ أنت تعلم ما أعني. لقد تُركت دون قرش واحد. . .

فتنهد: «تحدثنا عن هذا من قبل. اصغي إليّ يا لورا. . . ».

ـ ولماذا أصغي إليك حينما تكون في صفها؟

فتوترت شفتاه: «أنا لست في صفها».

ـ أنت دعوتها إلى البقاء هنا. بينما لم تدعني قط إلى ذلك.

ـ أنت تعلمين لماذا. وعلى كل حال، يا لورا، لو استمعت إلى ما سأقوله، فربما. . . ربما كنت. . . تفكرين بعقلك، لا بيديك الصغيرتين الطماعتين.

ـ جايمس؟

ـ حسناً. أنا أعني ذلك.

وفكر هنيهة، ثم استدار حول المكتب ليتقدم نحوها، لكنها عندما أوشكت على معانقته، قال وهو يحبط سعيها: «اصغي إليّ. ألم يخطر في بالك أن فقدان هذه الفتاة لذاكرتها قد يخدم مصلحتك؟».

فبدا عليها الارتياب: «لمصلحتي؟ وكيف؟».

فكر جايمس قليلاً قبل أن يتكلم، ثم قال بحذر: «إنها لا تتذكر شيئاً، لا شيء، لا موت آدم، ولا وراثتها أملاكه، ولا نيتها في البيع. والآن هل

فهمتني؟».

فقطبت حاجبيها: «فهمتك، ولكن...».

- ألم يخطر لك أنك... أن الحظ قد منحنا مجالاً للتنفس؟

فطرفت لورا بجفنيها بعد أن أخذت تفهم: «مجالاً للتنفس؟ لكي نجعلها تغير عقلها؟».

- حسناً، لنجعلها تفكر في ذلك، على كل حال. اسمعي، الأهم عند جسيكا دقلين الآن، هو أنها غير شرعية. إخبارك لها بذلك قد يكون من سوء الحظ في الواقع، ولكن قد يكون له صدى حسن.

- وكيف؟

فسكت لحظة ثم أجاب: «حسناً، حالياً هي ضعيفة. لحسن الحظ لم يكن لديك فرصة لتخبريها أن قدومها إلى هنا كان لرغبتها في بيع الأملاك. وإذا استطعنا، قبل أن تستعيد ذاكرتها، أن نقنعها بأن ليس من مصلحتها أن تفعل ذلك، فربما لن يضيع كل شيء».

قالت بحماسة: «آه، يا جايمس، لم أفكر في ذلك قط».

- لا، حسناً كما أقول لك دوماً، أنت لا تفكرين بل تتصرفين، ثم تواجهين النتائج بعد ذلك.

- الأفضل إذن أن تكون معي لكي تبقيني تحت السيطرة. أليس كذلك يا حبيبي؟

ابتعد جايمس فجأة عنها، وقال وهو يتأملها:

- ألا يمكنك أن تتصوري فظاظة ما يمكن أن تكوني عليه، لو جهلت من تكونين أو من أين جئت؟

فقالت محتجة: «حسناً، يمكنني تصوّر ذلك طبعاً، يا حبيبي. ولكن عليك أن تقدّر وضعي أنا أيضاً. فلم يكن هذا سهلاً عليّ قطّ».

قال بجفاء: «هذا ما يجعلني مستعداً للصفح عنك. وهكذا، هل توافقين على الترتيبات الآن؟».

مدت لورا وجهها: «حسناً، لا أوافق عليها بالضبط. في الواقع، خطر في

بالي أن أدعوها إلى بيكرْسَلي».

فزم شفتيه: «وهل تظنينها ستأتي؟ بعد تصرفك ذاك معها؟».

بدا الوجوم عليها: «ربما، إذا استطعتُ إقناعها بأنني لم أقصد أن أكون فظّة معها».

فهز رأسه: «أشك في ذلك. قد تكون ضعيفة، لكنها ليست حمقاء».

وفي الحقيقة، شعر بكراهية غريبة لتعريض الفتاة إلى مزاج لورا الزئبقي المتقلب.

فقالت وهي تبتعد عنه ساخرة: «وماذا ستقول الصغيرة العزيزة ليوني عن ذلك؟ أم أنك لم تخبرها بعد؟».

قال باختصار: «بل أخبرتها. والآن، آسف أن أطلب منك المعذرة. هناك مشروع تجاري يا لورا، ولدي عمل أقوم به».

ولم يجد جيمس فرصة للتفكير في ما تضمنه هذا الاتفاق، إلا في آخر الأمسية. كان قد بلغ به الغضب في الليلة السابقة من لورا مبلغاً منعه من التفكير الجاد في هذه اللفتة المتهورة. وهذا الصباح، عندما ذكر الأمر لليوني قبل ذهابها إلى المدرسة، لم تكن متحمسة لذلك بطبيعة الحال، ولكن لم يكن لديهما وقت حينذاك للنقاش. لكن ملامح ليوني أثناء العشاء فضحت أفكارها، وبعد أن قدمت السيدة «هايز»، مديرة المنزل، إليهما اللحم المقدد والخضار، قرر جايمس أن شيئاً ينبغي أن يقال. فسألها وهو يعي أنها تعاف الأكل: «ما رأيك في قدوم ابنة عمنا للإقامة في المزرعة؟ أرى أن بإمكانها أن تأخذ الغرفة المجاورة لغرفتك. ما رأيك؟».

نظرت ليوني إليه من خلال أهدابها، وأجابت بجمود: «وما فائدة أن تسألني الآن، مهما قلت أنا، فستنفذ ما تريد. دوماً أنت هكذا».

تنفس جايمس متثاقلاً: «هذا غير صحيح».

- بل هو صحيح. أنت تعرف شعوري نحو لورا، لكنك تصرّ دوماً على إحضارها إلى هنا.

- نحن لا نتحدث الآن عن لورا. أريد أن أعلم شعورك نحو جسيكا. لقد

www.elromancia.com

عانت الفتاة كثيراً، ولا أريد أن أحضرها إلى هنا إذا كنت ستمضين وقتك في إزعاجها أو التحرش بها.

فهزت كتفيها: «هذا لا يخصني بشيء».

- بل يخصك. إنها، كما قلت لك، ابنة عمك.

- أحقاً؟ وما أدرانا بأن آدم هو أبوها بالفعل؟

ففوجيء جايمس: «ما أدرانا؟ حسناً، الحقائق موجودة، كما سبق أن قلت لك».

- حسناً، أظنه كان سيفعل أي شيء لكي ينتقم من لورا، ولم يكن ليتوانى حتى عن الادعاء بأن لديه طفلة غير شرعية بينما يعلم الجميع أنه لا ينجب أولاداً.

فحدق جايمس إليها: «من تعنين بالجميع؟».

احمر وجه ليوني الشاحب: «آه، أظنها مجرد أقاويل».

وتنهدت مرة أخرى عندما أظلم وجه أبيها وتابعت: «حسناً، هذه الجسيكا لا بد أن تثير الكثير من الأقاويل حتى ولو كانت فعلاً كما تقوله عن نفسها».

نظر جايمس إلى طعامه دون شهية. خلال الأسابيع الماضية، أي منذ موت آدم، لم يشك قط أن جسيكا دفيلين قد لا تكون ابنة ابن عمه. لم يخطر له أن آدم كان قد وجد الوقت والفرصة لكي يغيّر وصيته.

لقد بقي مريضاً مدة طويلة باحتقان القلب. واعتقد طبيبه أن ذلك ناتج عن إصابته في حداثته بحمى الروماتيزم. ثم ما لبثت صحته أن تدهورت بسرعة خلال أشهر. ولكن، رغم ذلك، فقد وجد آدم ما يكفي من الوقت لاقتفاء أثر هذه الفتاة المفروض أنها ابنته، ووريثته، ماذا لو لم تكن هناك ابنة؟ ماذا لو أن آدم، كما قالت ليوني، كان عقيماً؟

- كيف شكلها؟

- من؟ جسيكا؟ همم... حسناً، أظنها بالغة اللطف.

- إنها في الواحدة والعشرين، أليس كذلك؟ وشقراء.

والتوى فمها إلى أسفل.

- هل هي تشبه لورا؟

- لا، أبداً.

وتابع عندما رأى الارتياح في وجه ليوني: «إنها أطول واكثر سمرة. آه، ليست سمراء مثلي ومثلك. لكنها أقل شقرة من لورا. يمكنك وصف شعرها بأنه بني فاتح وليس أشقر».

فقطبت ليوني جبينها: «هل هي جميلة؟».

- جميلة؟

تملك جايمس شعور خاطف مؤقت بالنفور. لم تكن جسيكا جميلة. لم يكن لديها ذلك الجمال الصارخ، ولا الملامح التي يعتبرها الناس جميلة، وأول مرة رآها فيها، لم يرَ فيها شيئاً من الجاذبية. وكان جفناها قد تورما من الدموع. أما فمها الكبير الممتلىء، فقد توتر رعباً.

ولكن الأمر اختلف قليلاً في المرة الثانية. فقد أى أن ملامحها متناسقة. ووجد جمالاً حقيقياً في عينيها اللتين تشبهان بنفسجتين في الربيع، وتملكه حينذاك، نفس النفور الذي يحسّ به الآن. قالت لي، ني مندفعة وقد فرغ صبرها لتأخره في الجواب: «نعم، هي جميلة».

فهز كتفيه بالنفي.

- لا. إنها ليست جميلة.

قال هذا وهو يزيح طعامه جانباً: «إنها عادية تماماً، وأظنك قد تحبينها».

- هل لأنني عادية الشكل أنا أيضاً؟

سألته بمرارة فكبت آهة في داخله. وقال:

- هذا سؤال لا يستحق جواباً. أنا ذاهب إلى المكتب للعمل. وأرى أن تفعلي نفس الشيء. لديك امتحانات فلا تنسي هذا.

- لكنني وعدت تيد بإحضار الأمهار إلى المرعى.

- بإمكانه، مع كليف، أن يقوما بذلك من دونك.

رد عليها بحدة، فتأوهت وقالت متوسلة: «آه، أرجوك يا أبي. لا تجعلني

أمضي المساء في القيام بواجباتي المدرسية. أنت تعلم أنني سأترك المدرسة السنة القادمة لأعينك في الاهتمام بالخيول. ما فائدة التاريخ والرياضيات لي بينما أريد أن أعمل في مزرعة حيوانات؟».

فنظر إليها بحزم: «وأنت تعرفين أن رغبتي هي إرسالك إلى الجامعة. العمل مع الخيول ليس للفتيات، خصوصاً لفتاة مثلك».

ارتجف فكّها: «لا تكن متعصباً!».

أراد أن يعود إلى الاعتراض لكن ملامحها المفجعة ذكرته فجأة بجسيكا. فقال بعد لحظة:

- لا بأس، سأعقد معك اتفاقاً، كوني لطيفة مع جسيكا عندما تأتي إلى هنا، وأنا أعدك بالتفكير في مغادرتك المدرسة بعد ثلاث سنوات.

فترددت: «ثلاث سنوات؟».

فقال بحزم: «نعم. ثلاث سنوات. وإذا بقيت مصرّة على العمل هنا في المزرعة، فسأغيّر رأيي بالنسبة إلى الجامعة».

تنهدت ليوني، ولكن يبدو أنها أدركت أن هذا أفضل عرض يمكنها الحصول عليه، فتمتمت تقول:

- لا بأس، سأحاول أن أكون لطيفة معها. ولكن إذا هي عاملتني كما تعاملني لورا...

- لن تفعل ذلك.

قال هذا بفتور، متوجهاً نحو الباب.

- لا تتأخري في الخارج. ما زال لديك مدرسة غداً.

في صباح الجمعة، حمل جيمس جيسكا معه من المستشفى.

كانت جسيكا في انتظاره في غرفتها، مرتدية ثوباً حريرياً لونه بني فاتح، بدا أكبر من مقاسها، وقالت وهي تراه ينظر إليها: «لا بد أنني هزلت قليلاً».

- سيكون عليك أن تشتري بعض الملابس الجديدة.

قال هذا وهو يرى كيف حملت معطف الفراء عن أسفل السرير واحتضنته. أترى هذا ينم عن جشع أم إلفة؟ ووجد نفسه يفضل الظن الثاني. فقد كان فيها

شيء مثير للعطف وهي تستعد للرحيل.

جاء الدكتور باتل وممرضتان لتوديعها ولكن الدكتور جرّ جايمس جانباً لكي يصدر إليه تعليماته الأخيرة.

- ستتعب بسرعة، وتتكدر بسهولة أيضاً. هي بحاجة إلى أن تعامل بتفهم وصبر، وأن تبتعد عن الإثارة إلى أن تشفى بشكل طبيعي.

ونظر الطبيب إليه محذراً.

- فهمت يا دكتور.

وعضّ الدكتور شفته: «أرجو ذلك. لقد حدثني محاميك عن الظروف التي جعلت الآنسة دفيلين تأتي إلى شمال البلاد، ولكنني أشدّد عليك، بأن كل حديث هدّام يجب أن يُرجأ إلى أن تصبح أقوى».

- طبعاً.

ثم أضاف جايمس بلطف: «متى تظن أن ذاكرتها قد تعود؟ حالما نستعيد قوتها؟».

- ربما، ففقدان الذاكرة هو إحدى تلك الحالات التي لا يمكن لأحد أن يخمنها، يمكن أن تستعيد ذاكرتها غداً، أو بعد أسابيع أو شهور.

فتنهد جيمس: «آه، نعم، حسناً، إلى اللقاء الأسبوع القادم إذن».

لم يتحدثا أثناء الطريق داخل المدينة. ولكن عندما خلفا الطريق المزدوج ومدينة ليدز وراءهما، واصبحت الطريق تحدّها الحقول وكذلك الأشجار من الجانبين. عند ذلك بدا الاسترخاء على جسيكا.

قالت مفتونة: «يا للجمال! لم أتوقع قط هذه المشاهد. كنت أظنها صناعية داكنة كلها، تعلو جوها مداخن المصانع!».

ألقى عليها نظرة سريعة، وسألها: «أتتذكرين ذلك؟».

- ماذا؟ آه، نعم. نعم، أتذكر بعض الأشياء، فأنا واثقة تقريباً بأنني لم أكن أريد القدوم إلى هنا.

- إلى أين؟

- إلى الشمال. إلى ليدز.

www.elromancia.com

وعضت شفتها: «آه، ليس الآن، أنا لا أعني هذا، فأنا متشوّقة إلى الإقامة في مزرعة. لا أظنني أقمت في مزرعة من قبل».

ركز جايمس اهتمامه على الطريق، وهو يقول: «أخبريني عما تتذكرينه. ربما سيفيدنا هذا إذا تحدثنا عنه».

- ربما.

لكنها لم تبد متحمسة. وتساءل جايمس عما إذا تعجل الأمر. لكن شيئاً ما كان يدفعه للظن، بان إقامتها في مزرعته لن تكون عملاً حكيماً، وكلما أسرعت في استعادة ذاكرتها، كلما كان ذلك أفضل.

ومع ذلك، كان يكره أن يكدرها في أول يوم تغادر فيه المستشفى، ولتغيير الموضوع، قال: «أتحبين الخيول؟».

فابتسمت وقالت آسفة: «لا أظنني عرفت أياً منها وجهاً لوجه. لكنني واثقة من أنها لا تخيفني. هل لديك الكثير منها؟ وهل من السهل إحاطتها بالرعاية؟».

- عندنا عدد كبير منها، وكما أخبرتك، أنا أربّي الخيول. أما سؤالك عما إذا كانت رعايتها سهلة، فهذا يعتمد نوعاً ما على الحيوان نفسه.

- ماذا تفعل مع حصان سيء الطباع؟ لا يمكنك أن تقوّمه بضربه بالسوط فقط، أليس كذلك؟

- لا. ولكن في حالات كثيرة يكون هناك سبب لسوء سلوك الحصان، غالباً السبب هو الملل... وعلى المرء مراقبة الخيول دائماً للتأكد من عدم اكتسابها عادات سيئة.

- أي نوع من العادات السيئة؟

كانت جسيكا نصف مستديرة نحوه في مقعدها، فلم يستطع منع نفسه من ملاحظة الزغب الناعم على رقبتها، وقد كشفت عنه ضفيرتها المتدلة على كتفها اليسرى. كان يحيطها جوّ من الضعف يثير الاضطراب.. في تلك اللحظة، ورغم أنه كان يعلم أنها كانت تحاول فقط أن تظهر بعض الاهتمام بعمله، كان في صوته بعض الحدة وهو يجيب:

- سرعان ما ستعرفين ذلك. اسألي ليوني لتخبرك. إن لديها وقتاً لذلك أكثر مني بكثير.

خمدت حماسة جسيكا في لحظة، فقالت بحزن: «آسفة. لم أقصد أن اكون فضولية». وبللت شفتيها بلسانها.

- متى نصل؟

تمنى جايمس لو يرفس نفسه لانعدام إحساسه، ولكن في هذه الفتاة شيء ما يثير اضطرابه. الحقيقة أنه أصبح يشعر بالعطف عليها.. وهو سيفعل كل ما بإمكانه ليساعدها على استعادة ذاكرتها. لكنها، مع ذلك، تثير فيه اضطراباً.

وقال: «ننعطف من هنا، فيبقى أمامنا حوالى ثلاثة أميال. «بيكرسلي»، حيث كان يعيش أبوك، هنا، إلى يميننا. ربما عندما تشعرين بمزيد من القوة، سترغبين في الذهاب لرؤية المنزل».

لم تنظر جسيكا إليه وهي تسأله ببرودة: «هل تسكن السيدة بتلي هناك؟».

فنظر إليها متمعناً: «نعم. لماذا؟».

- إذن، لا أظنني سأرغب في الذهاب إلى هناك. السيدة بتلي لا تحبني، فهي تظنني دخيلة متطفلة. يمكنني أن أتفهم وضعها.. ولكن ليس علي أن أختلط بها، أليس كذلك؟

اشتدت أصابع جايمس على المقود وقال: «ربما ستغيرين رأيك».

- ولماذا أغيره؟

- حسناً...

وأخذ يبحث عن كلمات مناسبة.

- كانت زوجة أبيك.

- وأمي لم تكن كذلك. أعلم هذا.

وأحنت رأسها.

- ولكن هل ستتصرف زوجتك مثلها، مع شخص لا تعرفه؟ لقد فكرت كثيراً بما أخبرتني أنت به، فوصلت إلى نتيجة هي أنه ليس ذنبي أن أبي تصرف بذلك الشكل. لم اطلب أن أولد. وطوال العشرين عاماً الماضية، لم اكن أعرف

أن لدي أباً. ولم يحاول قط أن يراني أثناء حياته. لماذا عليّ أن أشعر بالذنب لأنه صمم أخيراً أن يعترف بواجباته؟

رغم إقرار جايمس بقوة حجتها، فوجيء بما قالته، فقال: «أنت ذكرت زوجتي. ألم أخبرك بأنها ماتت وهي تلد ليوني؟».

ـ لا.

والتفتت تنظر إليه الآن، وقد بدا في عينيها قلق غريب.

ـ ليوني... ظننت أن ليوني زوجتك.

ـ لا. ليوني هي ابنتي.

قال ذلك شاعراً برغبة دفعته إلى أن يقول: «هذا لا يزعجك أليس كذلك؟ فعدم وجود زوجة لدي ليس مشكلة».

ابتلعت جسيكا ريقها ثم سألته: «ولماذا يزعجني؟».

لكنه شعر بأن كلماتها هذه تنمّ عن تظاهر بالشجاعة اكثر منها عن اقتناع.

وتابعت تقول: «أنت... أنت ابن عم أبي، أليس كذلك؟ وبما أننا لا نعرف بعضنا بعضاً فليس هناك ما يثير الشك في مثل هذه العلاقة».

* * *

٤ ـ دائرة النسيان..

كانت غرفة جسيكا في القسم الخلفي من المنزل.

إنها لا تتذكر بالضبط أين كانت تسكن قبل قيامها بتلك الرحلة المشؤومة إلا أنها، وكما أفضت بذلك إلى مدبرة المنزل، لم تسكن قط في مثل هذه الغرفة الجميلة.

«إنه شيء رائع».

أضافت ذلك، شاعرة بغصة غير متوقعة في حنجرتها، وهي تطوي اللحاف المخطط الجميل. فقد كان منسجماً تماماً مع الستائر الطويلة، والسجادة المخملية ذات اللون البني الفاتح البهيج.

ردت مدبرة المنزل: «نعم، إنها غرفة لطيفة».

وأخذت تسوّي أطراف اللحاف.

ـ والآن، هل تريدينني أن أفرغ أمتعتك من الحقيبة؟ قال السيد بتلي إن عليك أن لا تجهدي نفسك في العمل، خصوصاً في يومك الأول هنا.

ـ شكراً، يمكنني تدبير أمري.

قالت جسيكا لها هذا بشيء من الجدية لشعورها بجفاء في معاملة المرأة لها.. لم تكن السيدة هايز عدائية بالضبط... لكنها لم تكن ودوداً، كذلك.

قالت السيدة هايز وهي تتجه نحو الباب: «هذا حسن، إذن، سأتركك لتقومي بذلك، لماذا لا ترتاحين قبل الغداء؟ السيد بتلي يتناول غداءه الساعة الواحدة. عندما تصبحين جاهزة، انزلي فقط إلى الطابق الأسفل».

www.elromancia.com

- شكراً لك.

أغلقت مدبرة المنزل الباب خلفها وإذا بقوة جسيكا تتلاشى فجأة.. جلست على الأريكة، ودفنت وجهها بين يديها لحظة، محاولة تهدئة ارتجاف كتفيها المفاجىء. ما الذي تفعله هنا؟ من تكون هي؟

عندما توقفت هذه الانفعالات العاطفية لديها، اعتدلت في جلستها ثم نظرت إلى حقيبة الثياب ذات الجلد الناعم الملقاة بجانبها... آه! حتى هذه الحقيبة لا تعني لها شيئاً، وحتى الملابس المحفوظة داخلها هي الأخرى غير مألوفة لها. ورغم أن لديها بعض النقود في حقيبة يدها، إلا أنها لا تكفي لشراء ملابس جديدة. وإلى أن يتبين وضعها المالي، عليها أن تحافظ على ما لديها.

لقد سألت الدكتور باتل عما إذا كانت تشغل وظيفة قبل حادث التصادم، فأوضح لها أنها تخلت عن وظيفتها قبل أن تترك لندن. ما الذي جعلها تفعل ذلك إذا لم تكن تتوقع الترحيب بها هنا؟ عليها أن تعود إلى لندن في الوقت المناسب لتعرف السبب.

تركت الأريكة وسارت نحو النافذة مستمتعة بالنسيم. كان المنظر خارج النافذة يحبس الأنفاس بجماله. فدادين لا تحصى من الحقول الغزيرة الأعشاب تحيط بها أشجار الزعرور، وأجمات هنا وهناك تلقي بظلالها.. وبالقرب من المنزل، خلف الشرفة الأرضية، كانت هناك أحواض تحتوي على مختلف أنواع الأزهار والورود. وتنبسط نحو الأسيجة البيضاء للمراعي، حيث كانت مجموعة من الأمهار وأمّاتها ترعى راضية. كل شيء كان هادئاً مسالماً إلى درجة لا تصدق. وانتعش مزاجها قليلاً، لتمتعها بهذا النهار.

كان الحمام الملحق بغرفتها يماثلها جمالاً. غسلت وجهها في المغسلة البورسلين الخضراء. بعد ذلك نزلت لتناول الغداء، ولأنها لم تكن ارتاحت بعد، بدأ الألم في رأسها، لكنها صممت على عدم الاهتمام به إلى ما بعد انتهاء الغداء.

كان المنزل فسيحاً، ولكنه لم يكن من الصعب عليها أن تجد طريقها فيه. كانت السيدة هايز تتوقع نزولها لأنها كانت بانتظارها في الردهة.

- الغداء جاهز.

قالت لها هذا وهي تنظر إلى ثوب جسيكا الحريري غير الملائم لجسمها والذي لم تفكر في تغييره، ثم تابعت تقول: «لقد أعددت المائدة في غرفة الإفطار فتفضلي معي».

قادتها من الردهة المبطنة بخشب السنديان لتصل إلى غرفة جلوس صغيرة. كان هناك أريكتان منجدتان بالمخمل، لونهما تبني مزخرف بلون ذهبي، وفي الوسط قامت مائدة مثمنة الزوايا متخذة شكل بيت العنكبوت. لكن السيدة هايز لم تترك مجالاً لجسيكا لإبداء إعجابها بالغرفة.

فقد فتحت باباً إلى اليمين، ودعت الفتاة للدخول إلى غرفة مشمسة فيها باب يؤدي إلى الشرفة وتتصاعد في جوها رائحة طعام شهية.

كانت المائدة، مجهزة لشخص واحد. وعندما التفتت إلى مدبرة المنزل مستفهمة، قالت هذه وهي تكشف إناء الحساء: «لقد اضطر السيد بتلي إلى الخروج، يا آنسة. والآن هنا مرق اللحم البارد وسمك السلمون المدخّن وسلطة. هل أنت قادرة على خدمة نفسك؟».

- آه، حسناً، طبعاً، ولكن...

وتنهدت جسيكا.

- أعني ما كان ثمة إزعاج، يا آنسة. إنه واجبي.

أجابت مدبرة المنزل مع أثر من حرارة في صوتها. ثم قالت بعد تردد:

- يبدو عليك وكأنك بحاجة إلى طعام جيد، فهذا الثوب واسع قليلاً عليك.

نظرت جسيكا إلى ثوبها الحريري التبني، وقالت: «آه، هذا. نعم، إنه يبدو غير ملائم، أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أتذكر ما الذي جعلني أختاره. يبدو أنه لا يناسبني أبداً».

فقالت مدبرة المنزل متأملة: «لا يا آنسة. إنه فقط بحاجة إلى بعض التصليح حتى يصبح محكماً على الجسم. لدي صديقة تحسن الخياطة، أتريدين أن أسألها عما إذا كان بإمكانها أن تصلحه لك؟

فقالت جسيكا بلهفة: «آه، أيمكنك هذا؟».

وعندما تذكرت أن ذلك يستلزم نقوداً، عضت على شفتها متراجعة.

ـ هذا... هذا لطف بالغ منك، لكنني... لا أدري إذا كان بإمكاني دفع الأجرة.

تغيرت ملامح مدبرة المنزل، فجأة، وقالت بلهجة أوشكت معها جسيكا أن تتكمش خوفاً: «أحقاً يا آنسة؟ عليك فقط أن تقولي لا. أنا لا أدسّ نفسي حيث لا يريدني أحد».

ذعرت جسيكا، وعرفت أن المرأة قد ظنت أنها تختلق الاعذار.

فقالت: «ليس الأمر هكذا... صدقيني...».

ـ لا بأس يا آنسة، أنا متفهمة تماماً.

لقد عاد الثلج إلى صوت مدبرة المنزل التي قالت: «المعذرة، لديّ أعمال أخرى».

تأوهت جسيكا بعمق بعدما انغلق الباب خلف مدبرة المنزل، وأخذت تفكر بتعاسة في الفوضى التي أحدثتها في الوقت الذي أخذت فيه المرأة تعاملها بدفء وحنان. يبدو أن مدبرة المنزل تظن أن بإمكان جسيكا أن تطلب من جيمس بتلي كل ما تحتاجه وكرهت جسيكا أن تشرح لها ببساطة، أن ليس بإمكانها هذا. صحيح أنه ابن عم أبيها، ولكن هذا لا يعني كثيراً في هذه الظروف. في الواقع، كان من الصعب عليها أن تعتبره قريباً لها على الإطلاق.

تناولت شيئاً من الحساء وعدة لقيمات من الطعام. لقد تسبّب التوتر العصبي في معدتها في عدم استمتاعها بهذه الوجبة اللذيذة.

رغم رغبتها في الخروج إلى أشعة الشمس واكتشاف ما يحيط بها، إلا أنها امتثلت لنصيحة الطبيب بالتزام الراحة بعد الغداء. لقد ظنت أنها، بعد كل هذه المستجدات، لن تستطيع الاسترخاء. لكن الواقع هو أنها شعرت بالنعاس حالما وضعت رأسها على الوسادة. كان جوّ غرفتها بالغ السكون. فالستائر المسدلة، لا تسمح إلا بعبور نسيم خفيف. وبقيت ساكنة حتى أيقظتها حركة في الشرفة الأرضية.

كان صوت فتاة هو ما سمعته أولاً، كان صوتها ساخطاً حاداً، تبعه صوت جايمس بتلي الذي أجابها بتوتر.

وأول كلمات استطاعت جسيكا سماعها كانت.

ـ ... وأنا قلت، بعد أن تنهي واجباتك المنزلية الدراسية.. أنا أعلم جيداً لماذا تريدين الابتعاد عن الطريق. لكنني لن أسمح لك بأن تكوني وقحة سفيهة!

كان الجواب مهمة لم تسمعها جسيكا، ولكن ما سمعته كان كافياً لكي تعلم أنها ابنة جايمس بتلي، ليوني... ابنة عم اخرى لها.

كان الجدل مستمراً، رغم أن ليوني كانت تقوم بمعظم الحديث ولأن جسيكا لا تريد سماع المزيد أسرعت بالوقوف وذهبت لتغلق النافذة.

ـ خسئاً، إلى متى ستبقى نائمة ؟

سمعت هذه الكلمات من الفتاة وهي تزيح الستائر جانباً، لكن استنكار جايمس الغاضب قاطعه صرير الباب.

كان صداع جسيكا قد تلاشى، لكن راحتيها كانتا تنضحان عرقاً وهي تعبر الغرفة لتغسل وجهها في الحمام. كما أنها رأت، وقد تملكها الذعر، أن ثوبها الحريري لم يعد صالحاً للارتداء بعد نومها فيه. عليها أن تغيره، ولكن بماذا؟ ورغم أنها علقت ثيابها في الخزانة، فهي لا تتذكر أنها رأت ثوباً ملائماً لمثل هذه المناسبة. لكنها فكرت في أن بنطلون جينز وقميصاً مقفلاً قد يلائمها اكثر، ولكن لم يكن في خزانتها بنطلون جينز، وإنما بنطلونات وقمصان عادية لم تعجبها، على الإطلاق.

هل من الممكن أن تغير إصابة في الرأس شخصية الإنسان؟ إذا محت إصابتها ذكريات ماضيها، فهل تغيّر أيضاً ذوقها في الملابس؟

أخيراً، غيرت ثوبها الممقوت مستبدلة إياه بملابس أقل تحفظاً. قميص حريري أصفر، وتنورة طويلة من «الشامواه»، بدت عليها أحسن مما توقعت، خصوصاً بعد أن شدّت خصرها بحزام جلدي ثم حلت ضفيرتها ومشطت شعرها وضمته على رقبتها بحلقة من المطاط.

هذا أحسن... قالت هذا لصورتها في المرآة، مشجعة نفسها للنزول إلى الطابق الأسفل لتجلس مع مضيفها على الشرفة.

كان سهلاً عليها أن تعثر على طريق الخروج إلى الشرفة، فقد سارت في الطريق الذي قادتها السيدة هايز فيها عند الغداء، لكنها هذه المرة لن تتوقف عند غرفة الصباح بل ستتابع طريقها لتخرج إلى حيث الشمس.

جايمس بتلي والفتاة التي افترضت انها ابنته، كانا جالسين تحت مظلة مخططة وبجانبها منضدة بيضاء من الحديد المزخرف، وكان على المنضدة كؤوس وإناء يحوي ثمار الفريز، وعندما خرجت جسيكا من المنزل، كانت ليوني تلتقط حبة فاكهة من الإناء وعلى وجهها مظاهر الاستياء والملل. وفي نفس الوقت، كان أبوها يدرس ملف مراسلات وقد عقد حاجبيه مركّزاً.

رغم حذرها، تصاعد رنين كعبيها على أرض الشرفة المرصوفة بالآجر مسترعياً انتباههما. وعلى الفور، وضع جايمس بتلي أوراقه جانباً ونهض واقفاً باحترام، بينما توقفت ليوني عن التقاط الفاكهة وأخذت تنظر إليها بتأمل عميق. وقال الرجل قريب أبيها: «يبدو عليك التحسن».

فسحبت جسيكا نفساً عميقاً: «أشعر بتحسن فعلاً».

وتمنت لو تعترف بأن صحتها الجسدية هي آخر ما يهمها.

ـ أمم... هل هذه ابنتك؟ قلت إن اسمها هو... ليوني؟

وبللت شفتيها وأرغمت نفسها على الابتسام.

ـ مرحباً يا ليوني. آسفة لأنني لم اكن مستيقظة حين عودتك من المدرسة.. و... أنا جسيكا.

ـ مرحباً.

لم يكن في ترحيب ليوني أي حماسة، فأكسبها هذا نظرة تحذير من أبيها، لكن تلك التحية، على الأقل، لم تكن عدائية. ورغم هذا، لم تتحرك الفتاة للترحيب بضيفتها... لقد بقيت فقط حيث هي على كرسيها، وقد ثنت كمي بلوزتها المدرسية إلى ما فوق كوعيها.

لم تكن فتاة جذابة... ووجدت جسيكا في هذا شيئاً من العزاء، إذ كانت

تتوقع أن تجدها نسخة مصغرة عن لورا بتلي، ففتاة في مثل سن ليوني الحساس لا بد أن تحاول التشبه بامرأة مثل لورا.

ـ اعتدلي في جلستك.

قال جايمس فجأة مخاطباً ابنته، فامتثلت هذه لأمره على مضض.

تمتمت تقول راجية أن تخفف من توتر الجوّ: «ما أجمل هذا. أنتم محظوظون حقاً في العيش في قلب الريف. إنني أحسدكم».

هتفت ليوني فجأة: «ابن العم آدم لم يكن يملك هذا البيت، إذا كان هذا ما تفكرين فيه...».

تخضب وجه جسيكا احراراً. وشرعت تقول: «أنا... أنا لم أفكر قط في ذلك».

لم تكن تعلم ماذا تعني الفتاة. ولكن قبل أن تتمكن من متابعة الكلام، تدخل جايمس قائلاً بحدة وهو يحملق في ابنته غاضباً: «عليك أن تعتذري على هذا يا ليوني».

وكان في تمتمة الفتاة بخضوع ما أحرجهم جميعاً. وأضاف جايمس بحرارة وهو يحوّل انتباهه إلى جسيكا: «أنا آسف. اسمعي، اجلسي. لماذا لا تجلسين؟ سأطلب من السيدة هايز أن تعد لنا الشاي. ليوني، إذا نطقت بمزيد من هذه الملاحظات، يمكنك أن تلتزمي غرفتك ودراستك إلى وقت الإجازة. هل هذا واضح؟».

فابتلعت الفتاة ريقها: «نعم يا أبي».

ـ هذا حسن.

ومنح جسيكا ابتسامة باهتة، متابعاً كلامه.

ـ سأتركك إذن للترحيب بضيفتنا. ربما ترغب في بعض العصير. يمكنك أن تملئي كأساً دون أن تهرقيها، أليس كذلك؟

ربما تهكمه كان فظاً نوعاً ما، لكن جسيكا ما زالت مصعوقة لتهجم الفتاة غير المتنظر عليها لذا لم تشعر بأي عطف عليها، أترى جايمس بتلي هو الوحيد في أسرته المستعد لأن يكون مهذباً معها؟ ولماذا؟ ما الذي فعلته لتستحق كل هذا

www.elromancia.com

توارى جايمس داخل البيت ليبلغ مدبرة منزله بمطلبه. وبعد ذهابه مضت عدة لحظات كان الصمت أثناءها لا يطاق تقريباً. ثم، مالت ليوني إلى الامام مشيرة إلى جسيكا لتجلس إلى المائدة، ثم رفعت إناء الفريز نحوها وأمسكت بإبريق العصير تسألها بغير تهذيب: «أتريدين شيئاً منه؟».

ترددت جسيكا لحظة قبل أن تأخذ الكرسي الذي قدّم لها، لكنها هزت رأسها رافضة الشراب قائلة إنها تفضل الشاي.

وتابعت: «شكراً لك».

ثم عادت تنظر إلى المشهد أمامها.

أحد الأمهار في المرعى آثر أن يقوم بقفزة صغيرة في تلك اللحظة. لم تستطع أن تكبح الشهقة التي صدرت عنها، ثم تملكها الارتياح عندما استقر الحيوان بأمان. وتوجه إلى أمه يحك أنفه برقبتها، طالباً إظهار الاستحسان.

سألتها ليوني: «أتعرفين شيئاً عن الخيول؟».

كان سؤال ليوني مفاجئاً كتهجمها السابق عليها. وخطر لجسيكا أن لا تجيبها، ولكنها ما لبثت أن أدركت أن ذلك سيبدو تصرفاً صبيانياً منها، فقالت بعدم اهتمام: «لا. لا شيء يستحق الذكر على كل حال».

ـ ألم تركبي جواداً قط؟

استدارت جسيكا قائلة: «لا. لا أتذكر».

قالت ليوني: «هل نسيت حقاً كل شيء؟».

قالت باستسلام: «كل شيء.. أنت، كما أظن، تعرفين كل شيء عن الجياد، وكل شيء آخر. أنت محظوظة حقاً. أم أنك ستعتبرين قولي هذا مثيراً للاستفزاز، هو أيضاً؟».

احمر وجه ليوني، وتمتمت وهي تحني رأسها: «قلت لك إنني آسفة».

ـ نعم. لكنني أحب أن أعرف ما عنيته بذلك. لماذا كان مفروضاً أن أتصوّر أن أبي ربما كان يملك هذا المكان؟

فنظرت ليوني إليها بضيق:

ـ ليس أنت... أنت لم... آه... كان ذلك مجرد قول غبي نطقت أنا به، وهذا كل شيء... اسمعي، ألا تأكلين شيئاً من الفريز؟

تنهدت جسيكا قائلة وهي تنظر إليها مفكرة: «لا، شكراً، أظنك لم ترغبي أن أحضر إلى هنا، أليس كذلك؟».

ـ نعم! لا! أعني... لا علاقة لي بمن يدعوه أبي أم لا يدعوه.

فقالت جسيكا: «إذا كان لديك سبب يجعلك تكرهينني، أحب أن أعرفه».

ـ لا. ليس لديّ... حسناً، أنا لا أعرفك، أليس كذلك؟

ودارت عينا ليوني بتوتر في أنحاء الشرفة.

ـ آه، اسمعي... سيأتي أبي في أي لحظة، فإذا ظن أنني أسبب لك الكدر مرة أخرى، فسأقع في مشكلة!

قطبت جسيكا جبينها، وقالت: «هل هذا شيء يتعلق بزوجة أبي؟ وهل تراها.. هل تراها حاولت تسميم عقلك ضدي؟».

فحملقت ليوني فيها غير مصدقة: «زوجة أبيك؟ أتعنين لورا؟ متى رأيت لورا؟».

ـ في المستشفى. جاءت إليّ بعد يومين من أول زيارة لأبيك لي.

فتفجرت اللهفة في عيني ليوني، وهتفت: «أحقاً؟ ثم؟».

ـ ثم ماذا؟

ـ حسناً، لا بد أنها قالت لك شيئاً للغاية حتى ظننتها سمّمت عقلي ضدّك!

ـ آه.. نعم. حسناً...

وعندما رأت انتعاش الفتاة، تمنت لو أنها لم تبدأ هذا الموضوع. وقالت ليوني بإلحاح: «هيا، أسرعي قبل أن يعود أبي. ماذا قالت لك؟».

ما زالت جسيكا مترددة: «أنا...».

كانت تعلم أن عليها أن تقول شيئاً، لكنها اختارت كلماتها بعناية.

ـ أخبرتني عن أبي، هذا كل شيء.

ـ كل شيء؟

www.elromancia.com

وانكمشت جسيكا في داخلها. ما تتذكره من حقد وبغضاء تلك المرأة لها، ما زال قادراً على جعل وجهها يشحب تماماً، وارتجفت. لقد تجنبت، حتى الآن، التفكير بتلك المواجهة. لكن أسئلة ليوني أرغمتها على أن تتذكر، ولم تعجبها الذكرى.

وعادت ليوني تلح عليها بلهفة: «أتعنين أنها أخبرتك عن الوصية؟».

لكن جسيكا لم تكن تصغي إليها. فقد فاجأها صداع أخذ يمزق صدغيها. وشهقت ألماً ومدت يديها تتشبث بحافة المائدة ثم وقفت مترنحة.

شعرت بشكل غامض، من علائم الرعب البادية على ليوني، أن شيئاً ما قد حدث. وإذا بجايمس يأتي مسرعاً فعادت تهبط على المائدة مترنحة.

- ما الذي قلته لها ؟

سمعته يصرخ بابنته غاضباً، قبل أن يساعدها على الدخول إلى المنزل.

وصرخت ليوني وهي تلحق بهما راكضة لتجاري سرعة أبيها: «لا شيء! لم أقل لها شيئاً. صدقني. كنا منسجمتين معاً. ثم إذا بوجهها يشحب فجأة وأخذت تترنح...».

فرد عليها بخشونة، متجاهلاً أعذارها: «سأتحدث إليك فيما بعد يا ليوني، أما الآن، فابحثي عن السيدة هايز واطلبي منها أن تعطي خبراً للدكتور باتل في المستشفى...».

لكن الصداع أخذ يتراجع، ولم تشأ جسيكا أن تسبب أي مزيد من الإزعاج، فقالت بضعف:

- آه، لا لزوم لذلك حقاً... همم... كلام ليوني صحيح. كنا نتكلم فقط.

وبللت شفتيها بلسانها، ثم تابعت تقول: «أرجوك لا تزعج نفسك باستدعاء الدكتور باتل. يمكنني أن أصعد إلى غرفتي».

فقال جايمس من فوق كتفه للفتاة المذعورة:

- دعي إذن الإتصال التليفوني، يا ليوني واخبري فقط السيدة هايز بأن تأخذ صينية شاي إلى غرفة جسيكا.

- نعم، يا أبي.

بدا الارتياح على ليوني، فلم تستطع جسيكا لومها، فالجدل مع جايمس في مزاجه هذا، غير ممكن، ولم تقل شيئاً عندما أخذ يصعد السلم وهي الى جانبه.

وعندما وصل إلى غرفتها ورفس الباب بقدمه، قال: «إنه ذنبي. كان عليّ أن أترك لك تعليمات بالبقاء في الداخل هذا النهار. من الواضح أن هذا كان كثيراً عليك. كان ينبغي أن أكون أكثر إدراكاً».

تمتمت باضطراب وهي تجلس على السرير: «أنت تعلم أنني لست طفلة».

واخترقت عيناه المتألقتان الفضيتان عينيها لحظة. رأته قريباً منها... أقرب مما يجب. واهتزت وهي تجد صداعها يتلاشى، ربما ذلك لأن الدم الآن أصبح يتدفق في عروقها، كما أخذت تفكر بضيق، معترفة، بشيء من الذعر، بأن استجابتها لهذا الرجل كانت مقلقةً لها، وهذا أقل ما يقال فيه.

- أنت بخير إذن.

قال هذا وهو ينتصب واقفاً. وفي وسط جمال غرفتها التبني والذهبي، بدت رجولته السمراء واضحة للغاية. فتمتمت وهي تتجنب عينيه: «إمم... أظن ذلك. شكراً».

تنحنحت شاعرة بالجفاف في حلقها: «وليوني لم تكن تضايقك؟».

- لا.

ورفعت بصرها إليه، لكنه كان قد ابتعد عنها، بينما بقيت رائحة جسده واضحة في ذلك الجوّ الحار.

وقف عند العتبة وقال: «هذا حسن. إذن، أرى أن ترتاحي بقية النهار، وستحضر لك السيدة هايز عشاءً، لكنني قد لا أراك قبل الصباح، وعلى كل حال، إذا احتجت شيئاً، لا تترددي في إعلامنا».

ثم ذهب، فأطلقت زفرة حرّى، ثم ضغطت بيدها التي كانت ترتجف قليلاً على صدرها وهي تقف متجهة إلى الحمام لتغسل وجهها بالماء البارد. كانت تشعر بسخونة بالغة، وعندما ضغطت ببرودتها على جبينها، أدركت أن الأمر لم يكن حالة جسدية فقط.

www.elromancia.com

٥ ـ ذكريات

أوقف جايمس بنتلي سيارته الرانج روفر أمام المنزل، ثم جلس عدة ثوانٍ يحدق في الواجهة المغطاة باللبلاب المعترش. كان يسمّى، في أوقات متعددة، «منزل بيكرسلي» و«بيت بيكرسلي الريفي» و «حديقة بيكرسلي» وظل بيتاً لجايمس حتى زواج ابن عمه منذ عشرين سنة. لقد ولد فيه. ولم يكن أبوه شفي قط من الجروح التي أصيب بها أثناء الحرب العالمية الثانية. وهكذا سرت أرملته بالبيت الذي قدمه حموها إليها، بعد أسابيع قليلة من اكتشافها أنها حامل. كان جد جايمس، وهو أرمل، بمثابة أب له على الدوام، وعندما تزوجت أمه مرة أخرى وهو في الثامنة، من عالم في الأحياء البحرية كان يفرض عليه عمله السفر حول العالم باستمرار، بقي هو قانعاً تماماً بالبقاء في «بيكرسلي» ومتابعة دراسته.

حينذاك، كان آدم بمثابة أخ أكبر له، رغم أن الخمسة عشر عاماً التي تفصل بين عمريهما قد استبعدت أية صحبة حقيقية، فآدم، مثل جايمس، نشأ في «بيكرسلي» أيضاً.

أخذ جايمس يفكر الآن، بأن من سخرية القدر أن يكون آدم قد تعرف إلى زوجته القادمة عن طريقه هو. كانوا جميعاً يعتقدون أن آدم صمم على العزوبية الدائمة، إذ قد بلغ الثالثة والثلاثين من دون أن يُظهر أي اهتمام بالنساء. وكان ذلك قبل أن يُقتل والداه في إعصار عنيف في أميركا الجنوبية. وبعدها تحول إلى إنسان حزين كئيب. لكن موقفه قد تغير عندما قدم إليه لورا، وسرعان ما اكتشفت أنه ليس وارثاً فقط لثروة بنتلي، بل أنه أيضاً، قد أصبح مبهوراً

بجمالها الفريد. وفي ذلك الحين كان جيمس ما يزال طالباً في الجامعة، ولا مجال لمقارنته به.

توتر فم جايمس.. كان غريباً أن يفكر في أن هذا المنزل لم يعد ملكاً لأسرته. أو، على الأقل، ليس لعضو شرعي منها. ومع أن جسيكا دقلين مقيمة في منزله حالياً، إلا أن من الصعب قبول فكرة أن كل هذا أصبح ملكها الآن..

كان غريباً أيضاً أنها بدت مختلفة عما توقعه. ذلك أن المحامي الذي كان موكلاً بشؤون آدم في لندن وصفها بأنها خشنة عدوانية، يغلب على طبعها التحدي والعناد ربما بسبب الغنيمة التي هبطت عليها فجأة. هل تلك الصدمة التي أفقدتها ذاكرتها قد رفقت من طباعها؟

أيمكن لهاتين العينين البنفسجيتين الرقيقتين، والشفتين المرتجفتين اخفاء النهم الشديد إلى المال؟ وهل مظهر البراءة المتلبس بها زائف غير أصيل، وهل ستبقى مصممة على بيع أملاك أبيها عندما تستعيد ذاكرتها؟ وإذا كان الأمر كذلك، ألا يدل احتضانه لها على سذاجة لا تصدق منه؟

تنهد. كان ذلك سؤالا صعباً، لن يتبين أحد أي فكرة كانت هي الصواب.

كان يقفل سيارته عندما ظهرت لورا على مدخل منزلها فوقفت بالانتظار. وقالت تحييه وهو يصعد السلم: «لقد تأخرت. لكنني سأسامحك».

تركها تقوده إلى الردهة، بدت لورا مليئة بالفضول، لكنها كانت تسيطر على نفسها، وهو بالذات لم يشأ أن يتعجل الأمور قبل أن يصبحا وحدهما تماماً. رافقها إلى غرفة المكتبة التي كانت تُستعمل أيضاً للجلوس، وعندما استند إلى الباب المغلق، هتفت تسأله: «والآن، هل أحضرتها من المستشفى؟».

فقال: «نعم».

واعتدل في جلسته، ثم تابع: «لقد استقرت بأمان في «أسبن». إنها فتاة طيبة».

فقالت بفروغ صبر: «طيبة. لا يمكن أن تكون جاداً في كلامك».

فنظر إليها: «لماذا لا؟ ما الذي تتوقعين مني أن أقول؟».

زمجرت ساخرة:

- ربما كان عليك أن تشعر بشيء من العطف على مشاعري. بما تظنني سأشعر وأنت تنعت الفتاة التي تهدد بتدمير حياتي، بأنها طيبة؟

- تبالغين في جعل الوضع مأساوياً، يا لورا، أنت تعلمين أن بإمكانك أن تستمري في العيش في بيكرسلي...

- ولكن إذا تزوجت مرة أخرى، فسيكون عليّ أن أغادره.

انفجرت لورا مطلقة لمشاعرها العنان، فهز هو كتفيه:

- وهل هذا غير معقول؟ المفروض أن يهيء لك هذا الزوج بيتاً، فهو أيضاً لن يريد أن يعيش في منزل رجل آخر.

فزمت شفتيها باستياء: «أنت تعلم أنك الرجل الوحيد الذي أريد أن أتزوجه!».

- أحقاً أعلم ذلك؟

- طبعاً أنت تعلم.

وتقدمت نحوه فتراجع.

- كيف يمكنك أن تشك بذلك، يا حبيبي؟

أجابها بهدوء: «لم يكن هذا شعورك منذ عشرين عاماً كما أذكر».

فتأوهت: «آه! ألا يمكننا أن ننسى ذلك؟ أنت تعلم جيداً يا جايمس أنني كنت صغيرة جداً وحمقاء فلم أعرف ما هو مفيد لي حقاً.. لكنك أنت من كنت أحب».

فقال دون أن يبدو عليه الاقتناع تماماً: «وهل هذا صحيح؟ الذي تقصدينه أنني كنت القريب الفقير. لم أكن أنا فتى جدّي الذهبي، وخليفته بل آدم الذي التحق بالشركة حال خروجه من المدرسة. لكنك لم تمنحيه طفلاً، أليس كذلك يا لورا؟ أنت لم تنجبي حتى بنتاً».

تراجعت لورا وهتفت وهي ترتجف: «أيها الوغد! كيف تقول لي شيئاً كهذا؟ أنت تعلم أنه لم يكن ذنبي في عدم الإنجاب».

نظر جايمس إليها بعينين ساخرتين.

- وماذا عن جسيكا دقلين؟

فقالت عابسة: «ماذا عنها؟».

- كيف تفسرين وجودها؟

فتنهدت: «من يعلم من كانت تلك المرأة؟ ربما ادعت كذباً أن الطفلة ابنته».

- نعم.

كان على جايمس أن يعترف بأن مثل هذا ممكن الحدوث. وتابع يقول: «ليوني قالت شيئاً كهذا، هي أيضاً».

فبدت الدهشة عليها: «أحقاً. حسناً، حسناً. ربما ثمة أمل لي الآن. يجب أن أتحدث مع ليوني. ربما يمكننا أن نتعاون معاً».

- الأفضل ألا تقولي شيئاً لليوني، لقد تعبت في إقناعها بأن تقبل الوضع كما هو. لا أريد منك أن تأتي وتشوشي أفكارها مرة أخرى. فلندع الأمور حالياً كما هي. أنت غير مهددة حالياً.

فترددت لورا: «لكنك تفهم شعوري، أليس كذلك؟ أعني أن بيكرسلي كان بيتك يوماً ما... ويمكنني أن أجعله بيتك مرة أخرى..».

- لا، يا لورا.

حدقت إليه: «ماذا تعني بقولك، لا؟».

- إذا جمعتنا الحياة معاً، فسيكون ذلك بحسب شروطي أنا وليس بحسب شروطك هذه المرة. تقولين إنك تحبينني...

- نعم أنا أحبك.

- حسناً، لا بأس. فليكن. ولكن إذا كنت تحبينني حقاً، ستعيشين معي في بيتي «أسبن» وليس في بيكرسلي.

- لا بأس، لا بأس.

قالت ذلك وقد أشاحت بوجهها فلم يستطع أن يرى التعبير الذي بدا في عينيها، وتساءل عما إذا كانت حقاً تريد أن تضحي بدورها بصفتها «ليدي أوف مانور» أي سيدة الإقطاعية.. كان يحبها. لقد أحبها منذ كان في الثامنة

عشرة، في الواقع. لكنه لم يكن غافلاً عن عيوبها. كانت لورا ابنة أحد المديرين عند جده. وكانت تأمل أن تكون الليدي بتلي الثانية، وذلك منذ أول يوم زارت فيه المنزل.

ولوى شفتيه. كل ذلك لأنه أحضرها إلى بيكرسلي لتتعرف إلى أسرته.. في أول إجازة له من جامعة «دورهام» قابل لورا أثناء زيارته لمكتب جده في ويكفيلد، وعلم أنها كانت تعمل هناك متدربة في مكتب. فتبادلا الإعجاب وأخذ يمضي عطلة عيد الميلاد وأوقات فراغه معها. وقبل أن يعود إلى الجامعة بعدة أيام، ارتكب غلطته التي أفقدته حبها.

لقد أدرك، حالما رأت لورا المنزل، أنها انبهرت بحجمه وفخامته وجماله. وعندما أبدى آدم افتتانه بجمالها الأشقر، أدرك جايمس أن أيامه، بصفته حبيباً لها، أصبحت معدودة. آه، يا لشعوره حينذاك بالمرارة، والغضب! لكن كل ذلك كان دون جدوى. كان عليه أن يعود إلى الجامعة بعد أيام وأثناء غيابه لم تضيّع لورا وقتها. كان آدم وهو الأحمق المسكين غارقاً في حبها بقدر ما كانت هي غارقة في حب بيكرسلي وكل ما يعنيه. حاول جايمس أن يخبر ابن عمه بحقيقة أمرها معه، لكن هذا اتهمه بأنه يدعي، لفشله معها، بأن العنب حصرم حامض، وبعد ذلك احتفظ بنصائحه لنفسه. لكنه رفض أن يصبح شاهد الزفاف.

وأثناء السنوات التي تلت، ابتعد عن بيكرسلي قدر إمكانه وعندما رأى جده أنه لا يهتم بأعمال الأسرة، ساعده على شراء مزرعة «أسبن» وهي عدة فدادين من المراعي المجدبة تقريباً وبيت ريفي متداع نوعاً ما. وهكذا تحققت أخيراً أحلام صباه في الحصول على مزرعة لتربية الخيول. لقد كلفته الكثير من الجهد والمشقة. كان يخطر له أحياناً أن يتخلى عن كل ذلك، ويتخذ عملاً آخر. لكن عزيمته، ورغبته في أن يثبت ذاته، ساعدتاه على الاستمرار. وقبضته الملهمة على الأمهار الصعبة المراس، بمساعدة ورعاية «تيد بيسلي»، جعلت تلك الأمهار تحطم أرقاماً عالمية في السباق. ومنحته الرأسمال الضروري لتنمية الخيول وتوسيع نطاق العمل.

وأثناء ذلك، قابل وتزوج والدة ليوني. ورغم أنه لم يحبها كما أحب لورا، إلا أن موتها حطمه. ومضت فترة لم يستطع فيها أن ينظر إلى طفلته دون أن يرى وجه أمها الشاحب «أيرين» كما كان يبدو على وسادة المستشفى.

وفي ذلك الوقت استغلت لورا ضعفه هذا لكي تندسّ في حياته مرة أخرى. ربما كان هذا هو سبب كراهية ليوني لها، فقد اعترضت، رغم أنها كانت ما تزال فتاة صغيرة، على وجود امرأة أخرى والاهتمام الذي يبديه أبوها نحوها.

لم يكن ذلك يعني أن جيمس قد رحب بتدخل لورا في شؤونه. وقد جرت بينهما مجادلات كثيرة حين أصرت على غزو مجاله. وكان جده قد مات تاركاً آدم المسيطر الوحيد على أعمال الأسرة. وهكذا، كان آدم يمضي ساعات طويلة في مكتبه، تاركاً لورا للسأم والحزن. ولكن جايمس لم يشعر بعطف نحوها، لقد اختارت مصيرها بنفسها وعليها أن تواجهه.

ورغم ذلك، فقد افادته في إحضار مربية لليوني، واقترحت عليه استئجار شركة «للديكور» الداخلي أعادت تصميم داخل المنزل، بقولها:

ـ جايمس، الناس، الذين نرجو التعامل معهم لن يتوقعوا أن يروك تسكن في منزل قذر متهالك. تريد أن يكون لديك اكثر منشآت الخيل اعتباراً في الريف، أليس كذلك؟ خذ نصيحتي لذلك. ما يحيط بهذا المكان هو مهم جداً.

وفكر جايمس، وهو يتذكر بمرارة، أنه كان عليها حينذاك، أن تعلم، أنه ما زال يشعر بألم خيانتها له.

ولكن لا أحد يمكنه، أن ينكر أن التجديد أتى بفائدة عظمى. فبين أيدي الخبراء، انتقل ذلك المنزل المتداعي إلى بيت مترف ذي مساحة واسعة لغرف الضيوف والمشترين الذين يأتون لزيارة المزرعة.

ومع مرور السنوات، تبدد عداؤه لزوجة ابن عمه تدريجياً. كما علم، من أناس آخرين بأن علاقتها مع آدم لم تعد بهجة على الإطلاق.

لكنه خلال هذه الفترة كلها لم يستغل دعواتها المتكررة له.

وعلى كل حال، منذ وفاة آدم، تغيّر الوضع. أصبحت لورا حرة الآن فلم تضيّع فرصة في تذكيره بهذه الحقيقة. ولكن لم يكن في نية جايمس العودة إلى

المنزل بيكرسلي. أسبن الآن هو بيته وبيت ليوني، وإذا ظنت لورا أن بإمكانها إقناعه بالانتقال، فسيخيب ظنها.

* * *

نتيجة لتأخره تلك الليلة، لم يستطع الاستيقاظ مبكراً في اليوم التالي. وعندما نزل إلى غرفة الإفطار، لم يكن مزاجه حسناً. ولأنه كان ينوي أن يتناول القهوة فقط، لم يكن مسروراً تماماً وهو يرى ضيفته قد سبقته إلى المائدة. وأجاب تحيتها المترددة بتمتمة غير مفهومة.

لكن جسيكا عادت تقول: «إنه صباح جميل».

ويبدو أنها لم تلحظ تحفظه، فاضطر إلى سحب كرسي جلس عليه ليسكب فنجان قهوة وهو يجيب: «وهو كذلك».

وكان قد لاحظ مبلغ تحسن مظهرها ذلك الصباح. كانت قد ضفرت شعرها مرة أخرى فبدت أصغر سناً، وارتدت كنزة صفراء أبرزت رشاقتها. كان الفرق بينها وبين لورا، واضحاً أكثر من أي وقت مضى.

بينما كانت لورا صغيرة الجسم، وذات أنوثة مفرطة، كانت جسيكا طويلة نحيفة واكثر تحكماً في نفسها. ولكن عندما تذكر المعطف الفرو، كاد يغير رأيه هذا.

ولكنه عاد فتملكه شعور بأن من غير المحتمل أن تتأثر هذه الفتاة بالمظاهر المتكلفة. أما بالنسبة إلى ملابسها فيظنها تبدو أحسن في البذلة المؤلفة من التنورة أو البنطلون، مع السترة، إنها الملابس التي تناسب طولها ورشاقتها الطبيعية، لكن هذه أشياء يفترض أنها لا تعنيه على الإطلاق.

ـ أشعر بتحسن كبير اليوم.

تطوّعت بهذا القول ملمحة إلى أنه أغفل السؤال عن صحتها، فثار غضبه وقال بلهجة جارحة: «أنا مسرور جداً لسماعي هذا. ربما إذن ستمتنعين عن الانفجار في البكاء أو المعاناة من نكسة أخرى، إذا أنا أخبرتك بأن لورا، التي هي السيدة بتلي، قد تأتي إلى هنا اليوم لكي تعتذر إليك على قلة تهذيبها معك».

التهبت وجنتا جسيكا احمراراً، ولكن، قبل أن يجد فرصة إما لتقوية هجومه

وإما للشعور بالندم لقسوته هذه، هبت واقفة على قدميها، فاحجم عن الكلام مذعوراً، ثم هتفت: «دوماً كنت أتساءل... أتساءل كم سيمضي من الوقت قبل أن تظهر لونك الحقيقي! ربما تؤدي لي خدمة بإعطائي رقم تليفون شركة سيارات الأجرة، وبهذا يمكنني ترتيب أمر انتقالي مع أمتعتي من هنا في الحال. كنت أعلم أنك لا تريدني هنا حقاً».

أصغى جايمس إلى هذا الهجوم وقد تصاعد اشمئزازه من نفسه، لقد كان الوحيد الذي يعطف عليها. والآن، بسبب مزاجه السيء، يدمّر فعلاً ذلك الاتصال الضئيل الذي نشأ بينهما. فتمتم بخشونة وهو يقف مثلها: «اسمعي، أنا آسف».

هرعت مسرعة نحو الباب تلوّح أمامها بذراعيها، قائلة بصوت مختنق: «لا تزعج نفسك بالاعتذار لأن الذنب ذنبي، كله ذنبي. ما كان لي قط أن آتي إلى هنا. كان عملاً غبياً مني».

ـ لم يكن غبياً على الإطلاق، بل كان ضرورياً.

قال هذا عابساً وهو يلحق بها مقاوماً رغبتها في تجنبه. وباندفاع مفاجيء، قال: «أرجوك يا جيس، كفّي عن محاربتي. فقد قلت لك إنني آسف وعليك أن تصدقي ذلك».

واجهته بشجاعة: «ولماذا عليّ ذلك؟».

لاحظ ضعفها وأحس بمقدار ما استخدمه من عنف معها فشعر بأن عليه أن يطمئنها.

ـ لأنني... لأنني عنيف ومستبد.

ـ حسناً... ! لم أكن أعني ما أقول. كنت فقط أفرغ شعوري باليأس.

ـ يأس أنا سببه!

ـ لا.

وتابع يقول بخشونة: «لديّ الكثير في ذهني حالياً. عليك أن تتعودي على غرابة طبعي. فأنا أزعجر كثيراً، لكنني لا أعض غالباً، كما تقول ليوني».

كانت جسيكا ترتجف، وكان يشعر بذلك. أراد أن يسرّي عنها، أن

بأخذها بين ذراعيه ليثبت لها أن كلماته تلك كانت نتيجة إطلاقه العنان لأهوائه. كان يريد أن يمحو نظرة القلق على وجهها، ويعيد الثقة التي بدت عليها قبل أن يصفعها بكلماته تلك.

لم يفعل أياً من هذه الأشياء. هنالك شيء ما، شعور أمن داخلي، حذّره من أن الاستسلام إلى هذا الدافع ليس قلة تبصر فحسب، بل هو طيش وتهوّر أيضاً، ذلك أن الوضع أخذ يصبح أعنف بكثير. أدرك أن عليه أن يهدئها على الفور. إنها ابنة عم ابنته، قبل كل شيء! ودوره في حياتها بمثابة دور العم، أو الأب! وعليه فقط أن يتصور ردة فعل لورا لو دخلت عليهما الآن. تركها فجأة، عندما شعر ببعض الارتياح. ولكن عندما استدارت لتبتعد، مدّ يده أمام الباب حائلاً بينها وبين الخروج وقال:

ـ اسمعي. ألا يمكننا أن ننسى ما حدث؟ ألم يحدث قط أن تركت فراشك بمزاج سيء؟ أم أنك لا تتذكرين المثل القديم؟

بللت شفتيها بلسانها: «بل أتذكره».

وتطلع إليها جايمس فشعر بحافز لا يمت إلى شعور العم بصلة، يدفعه إلى أن يلامس وجهها بإبهامه. وتابعت هي تقول: «أنا... لا بأس، سأحاول أن أفعل ما تقول. ما دمت جاداً، ولا تمانع حقاً في وجودي هنا».

ـ أنا الذي دعوتك، أليس كذلك؟

ـ بعض الناس يندفعون في عمل شيء يندمون عليه فيما بعد.

لوى شفتيه: «ربما ذلك كقبولك دعوتي».

ـ ربما... والآن، إذا سمحت.

ـ إلى أين ستذهبين؟

تنهدت قائلة: «وهل هذا مهم؟».

ـ في الحقيقة، نعم.

ـ لماذا؟

كانت تبدو أكثر حيوية مما تصوّر قبل هذه المشادّة، وتساءل عما إذا كانت كلماته قد أشعلت بعض الطاقة الكامنة داخلها.

أنزل جايمس ذراعه وانتصب في وقفته، وقال: «ربما تحبين إلقاء نظرة على المكان، إذا وعدتك بألا أتعبك».

ترددت جسيكا، لكنه شعر من اليقظة المفاجئة في نظراتها بأن الفضول تملكها لهذه الفكرة، قالت: «إمم... هل لديك وقت لذلك؟».

رفع حاجبه: «سأوفر الوقت».

تصلب ظهرها: «و... السيدة بتلي».

ـ ما شأنها؟

ـ ماذا لو جاءت ونحن... ونحن لسنا هنا؟

فأجاب بفروغ صبر مفاجيء.

ـ ستنتظر. اسمعي، هل تريدين أن تأتي أم لا تريدين؟

* * *

عندما عادا إلى البيت، كانت لورا بتلي في انتظارهما، وقد انتصف النهار تقريباً. تساءلت جسيكا عما إذا تعمدت المرأة الحضور في هذا الوقت، لكي تحظى بدعوة السيد بتلي... لتناول الغداء.

مجرد رؤيتها للمرأة مرة أخرى، جعلها تشعر بغثيان أخذت تجاهد للتغلب عليه. كانت متعبة، ورغم أن الصباح لم يكن مجهداً، إلا أنه أوهن قواها، وأدركت أن أي شجار محتمل سيكشف عن ذلك. كل شيء كان أكثر إيلاماً هذا الصباح. زيارتها للإصطبلات، إطعام الأمهار في المرعى، كل هذا لم يساعدها على نسيان مشاكلها مؤقتاً.

أحست بأن جايمس لم يكن مسروراً تماماً لرؤية زوجة ابن عمه، هو أيضاً. كان غريباً أن تلحظ مزاجه بهذه السهولة. أثناء الصباح، أحست في بعض الأوقات بأنه لم يكن راغباً تماماً بالمهمة التي أخذها على عاتقه، أي تنصيب نفسه حامياً لها، وقد فاجأته في لحظات وهو ينظر إليها بملامح عدائية غريبة لا تستطيع وصفها. وتساءلت، إذا لم يكن يريدها هنا حقاً، فلماذا حاول إقناعها بالبقاء؟

www.elromancia.com

ومع ذلك، كان الصباح ناجحاً. ولكن الوضع تغيّر عندما رأت لورا بتلي تسير على الفناء المبلط أمام الإصطبلات. لقد أراها جايمس المخازن، ومرابط الفرس وساحة التدريب الداخلية حيث تروّض الخيول غير المدربة، والفحول الغالية الثمن. وتعرفت إلى مدير المزرعة «تيد بيلي» الذي كان يبدو عليه الحزم.

وتر حضور لورا بتلي كل عصب فيها. وحتى ثوبها الحريري التبني المقصّب، ذكرها بالطقم الجلدي الأبيض، وهي ترتديه في زيارتها لها في المستشفى. وأخذت جسيكا تتساءل عما إذا كانت لورا تتعمد لبس الألوان الفاتحة لكي تخفي تصرفاتها السوداء.

وعلى كل حال، هذا الصباح، لم تشر البتة إلى تلك المواجهة غير السارة. بل العكس، فالابتسامة التي منحتها للفتاة كانت تتضمن كل الحرارة التي كانت جسيكا تتمناها في اجتماعها الأول، وكان يبدو عليها نوع من الاستعطاف وكأنها تسألها الصفح.

تملكتها الدهشة وهي ترى كلمات المرأة الأولى موجهة إلى جايمس. وأخذت جسيكا تنظر، بشيء من الحيرة، إليها وهي ترمق جايمس، بنظرات لا أثر فيها للقرابة العائلية وتقول: «لقد انتظرت دهراً، يا عزيزي».

ـ أحقاً؟

وتملك جسيكا الإرتياح لأنها لم تتمكن من أن تغري جايمس على الاستجابة لها بعاطفة محمومة، وتابع: «حسناً، لقد أخذت جسيكا في جولة لأريها المكان. من المهم أن تعرف محيطها، أليس كذلك؟».

إذا كانت كلماته تتضمن تحدياً، فإن لورا لم تستجب له. لكن جسيكا تساءلت عما دعاه إلى أن يدعوها الآن «جسيكا» وليس «جيسي» كما اعتاد عندما يكونان وحدهما.

أجابت المرأة على الفور بلهجة تأييد واضحة: «طبعاً يا عزيزي طبعاً».

وتأوهت باحتجاج عندما ابتعد عنها ثم أضافت تقول: «كلنا نريد أن نفعل ما نستطيع لكي تشعر جسيكا بأنها، معنا، في بيتها».

وأضافت تخاطب الفتاة: «أنا أعني هذا، يا عزيزتي، مهما يكن قولي

السابق، يجب أن تصدقي أنني لم اقصد إثارة استيائك».

تصلبت أصابع جسيكا. فقد كانت لورا تكذب طبعاً. وهي واثقة من ذلك تقريباً، ولكن لا سبيل لديها لإثباته.

ونظرت بشيء من العجز إلى جايمس قبل أن تجيبها: «لا بأس في ذلك».

ـ كنت أعلم أنك ستتفهمين.

ولتحاول التأثير في جايمس، تأبطت لورا ذراع جسيكا أثناء العودة إلى البيت، وتابعت كلامها.

ـ والآن، هل نحاول أن نصبح صديقتين؟ أنا أعلم أن الصداقة تستلزم أشياء كثيرة، ولكن يجمع بيننا شيء واحد على الأقل، وهو أن أباك خدعنا، نحن الاثنتين.

أرادت جسيكا أن تخلص ذراعها من ذراع لورا، ولكن لم يكن لديها القوة لذلك.

قالت لها لورا وهما تصعدان الدرجات المنخفضة التي تفصل بين الحديقة والمراعي.

ـ وهكذا، هل تشعرين بتحسن؟ على الأقل لم تعودي ملتصقة بالمستشفى. ألم يكن لطفاً بالغاً من جايمس أن يقدّم إليك بديلاً له؟ لكن الواقع أن عليك أن تكوني في بيكرسلي، لأنه بيت أبيك.

قبل أن تجد جسيكا الكلمات لتجيب على هذه الدعوة، تدخل جايمس. وتملكها الارتياح عندما لم يدعها تنطق الرفض.

تقدم أمامهما لكي تسمعاه بوضوح، فقابل نظرات لورا بشيء من التحدي. ثم قال بلطف: «ليس من المفيد لجسيكا أن تغيّر محيطها مرة أخرى. فقد اعتادت على هذا المكان. ونحن لا نريد إثارة ذهنها، أليس كذلك؟».

توترت شفتا لورا: «أليس الأكثر احتمالاً أن تبقى مشوشة الذهن هنا؟».

رفع حاجبه: «لماذا؟ فهي لا تعرف «بيكرسلي». فهو غريب عليها مثل «أسبن». هذا إلى أن الدكتور باتل جعلني مسؤولاً عنها. ولا يمكنني القيام بمسؤوليتي هذه إذا لم تكن هي هنا».

لم يعجب جسيكا أن يتحدثا عنها وكأنها غير موجودة، لكنها كانت أقل إعجاباً بفكرة الانتقال إلى بيت لورا بتلي. وهكذا بقيت صامتة، وأخيراً قال جايمس منهياً الحديث:

ـ فلنذهب لنتناول شراباً. آه! أرى أن السيدة هايز قد أحضرت لك قهوة يا لورا. هل تريدين نفس الشيء يا جسيكا؟

ـ لا بأس بالقهوة.

قالت جسيكا هذه راغبة في مزيد من الاختلاف في الرأي. وسهّل الأمر ظهور مديرة المنزل. فقال لها جايمس: «هل يمكننا الحصول على مزيد من القهوة؟».

فأومأت المرأة: «طبعاً يا سيد بتلي».

وألقت على جسيكا نظرة متفحصة.

ـ هل ستتناولون القهوة هنا على الشرفة أم أحضرها إلى المكتبة؟

قال جايمس: «آه! أظن أن الجو دافىء هنا على الشرفة. سنتناول الغداء بعد نصف ساعة، إذا كان هذا مناسباً. إذ يجب أن يكون مبكراً نوعاً ما، لأن لديّ اجتماعاً مع بعض الزبائن الساعة الثانية النصف».

أمسك جايمس كرسياً لجسيكا لكي تجلس. كانت أقرب إلى لورا مما تحب، لكنها شعرت بأنها ملزمة بقبوله. سيكون عليها، عاجلاً أم أجلاً، أن تتفاهم مع هذه المرأة التي كانت زوجة أبيها.

جلس جايمس أمامهما مسنداً يديه على ذراعي كرسيه. ولكن رغم أن جلسته كانت عفوية، فقد أحست جسيكا بأن مزاجه لم يكن كذلك على الإطلاق. وكانت تجاهد بلهفة لتقول شيئاً عندما أثارت لورا موضوعاً كريهاً. فسألتها وهي تتخذ وضعاً أكثر رشاقة، مسمرة جسيكا بنظرة ثاقبة: «ألا تتذكرين شيئاً؟ أعني، أي نوع بالضبط من فقدان الذاكرة حدث لك؟ وإلى متى يُحتمل أن يستمر؟».

أجابت جسيكا برغمها، متذكرة شيئاً كان الطبيب قد أخبر جايمس به في حضورها، أجابت قائلة:

ـ أعتقد أنه يدعى (فقدان الذاكرة العصبي).

زمجرت لورا: «فقدان الذاكرة العصبي!».

قال جايمس بهدوء: «إنه مجرد اسم اصطلاحي، يمكنه أن يعني أي شيء وقد يحدث نتيجة ألم أو ضغط الأعصاب وإجهادها... أو ضربة على الرأس».

ـ إذن، ليس هناك ضرر جسماني حقيقي أصاب ذاكرتها؟

تنهد جايمس وتصلبت ملامحه: «لا، هذا هو رأي الدكتور باتل على الأقل».

ـ كيف نعرف إذن إن فقدت ذاكرتها حقاً...

بدأ جايمس يقول بفروغ صبر: «آه، حقاً أنك...».

لكن جسيكا لم تعد تطيق أن تبقى مخلوقة بكماء غير قادرة على الحديث عن نفسها.

ـ وهل تتصورين أنني أستمتع بهذا؟

هتفت بهذا وهي تضع يداً على صدغها حيث تدفق الدم بشكل غير عادي إلى دماغها وتابعت: «كم أريد أن أتذكر من أنا، مثل أي شخص آخر، وربما أكثر. أنا أعرف أن علمك بوجود ابنة غير شرعية لزوجك قد صدمك، لكن هذا ليس ذنبي، وأتمنى ألا تلوميني لهذا».

ـ أحقاً؟

وكانت لورا ستقول أكثر من ذلك، لكن جايمس تدخل مرة أخرى وهو ينقل نظراته بينهما عابساً: «هذا يكفي رجاءً، الحقائق واضحة. وعلينا أن نتعوّد عليها. والآن، هل يمكننا أن نتحدث عن شيء آخر؟ ماذا يحدث في المصنعين؟».

ألقت لورا على جسيكا نظرة أخرى متأملة. ولكن يبدو أنها قررت أن الوقت غير مناسب لإكمال هذا الحديث.

وبدلاً من ذلك أخذت تتحدث عن مشكلة اعادة الزرع في برادفورد، وعدم التأكد من الملكية بالنسبة إلى الوضع الحاضر. وبما أن جسيكا لم تكن تعلم عن أي وضع يتحدثون، شغلت نفسها بصينية القهوة، التي وضعتها مديرة المنزل

www.elromancia.com

أمامها. لكنها لم تهتم بكلامهما إلا بعد أن سمعتهما يذكران اسم «ريبلي» فشعرت باهتمام غير عادي. كان ذلك الاسم يعني شيئاً لها. كادت تقسم على ذلك.

فاستجمعت شجاعتها، ثم قالت بهدوء: «ذكرتما اسم شخص يسمّى «ريبلي». . هل يمكن أن أعرفه؟».

فقال جايمس بصبر، متجاهلاً الإرتياب على وجه لورا: «ذلك ليس شخصاً، بل شركة، شركة مصممي أنسجة، هل يذكرك هذا بشيء؟؟ كان أبوك قد استعمل بعض تصاميمهم في غزوله الصوفية».

طرفت جسيكا بأجفانها. مصممو النسيج. . أخذت تردد ذلك بصمت. نعم. كانت تعلم ذلك، أيضاً. ولكن كيف عرفت؟ وماذا يعني هذا لها؟

ـ هل أنت بخير؟

كان جايمس ينظر إليها ببعض الاهتمام الآن. وتكهنت جسيكا بأن وجهها فقد اللون القليل الذي كان يكسوه.

قالت: «أنا. . . بخير».

وهزت رأسها بشيء من الذهول.

ـ إنه مجرد الإسم. . . ريبلي. . . يعني شيئاً لي، أنا واثقة من ذلك تقريباً، أنا أعرف ذلك الاسم وحقيقة أنهم مصممو نسيج.

فأجاب بحذر: «أحقاً؟ وهل تعرفين لماذا؟ أعني هل ذلك مجرد اسم؟ أم هو أكثر من ذلك؟».

حاولت جسيكا أن تفكر. لكن ذلك لم يكن حسناً. فقد عاد إليها ذلك الاضطراب العنيف عندما حاولت التركيز. ابتلعت خيبة أملها وهي تنهار في كرسيها يضعف، واعية إلى أن لورا كانت تراقبها دون عطف.

وقالت بتبلّد: «لا. لا، ليس هناك أكثر من هذا الإسم فقط. أتظن انني سمعت به في لندن؟ هل هذا هو السبب في أنك لا تظن ذلك مهماً؟».

تنهد جايمس وتبادل نظرة مع لورا: «أنا لم أقل إنه ليس مهماً. بل هو مهم طبعاً. كل ذكرى، مهما كانت صغيرة هي هامة».

وتردد لحظة: «كما ترين، «ريبلي» هي الشركة التي كانت ستشتغل فيها الفتاة التي قُتلت. لقد أخبرتنا الشرطة بذلك. كانت في طريقها إلى «ليدز» للقيام بالمقابلة. لا بد أنك تكلمت معها فقد كنتما، على ما يبدو، تشتركان في نفس المائدة».

* * *

تملك جسيكا الارتياح عند انفضاض الجلسة. فقد أصبح بإمكانها أن تمضي فترة بعد الظهر في التعرف إلى حديقة المنزل.

كانت في الحقيقة مسرورة من تصرفها هذا، إذ يمكنها حصر ذهنها في ما قاله جايمس لها. حتى ذلك الحين لم تدرك كم كانت قريبة من الموت نتيجة ذلك الاصطدام. ولكن سماعها بأن الفتاة التي كانت جالسة معها قد ماتت، أظهر كل شيء بأبعاده الحقيقية المؤلمة. لقد أدركت أن إصاباتها، مهما كانت مؤلمة مكدرة، هي في الواقع تافهة. وها هي ذي الآن، تفكر بأسى في أنها لا تستطيع أن تتذكر شيئاً، بينما تلك الفتاة التي ربما كانت في مثل عمرها قد ماتت ودفنت الآن.

جاءت السيدة هايز إليها أخيراً عندما كانت تتأمل صور فحول الخيل على جدران غرفة الجلوس وسألتها إذا كانت تريد شاي العصر مضيفة بصوت أقل خشونة في نبرته مما كان في اليوم السابق: «ليوني ستعود قريباً. ربما تحبين أن تتناوليه معها.».

ولم تكن جسيكا حقوداً، فقالت لها: «لا بأس. . . هل ربّى الجياد السيد جايمس بنتلي؟».

لوت مدبرة المنزل شفتيها: «هذه الجياد؟ لا، يا آنسة. ألا تميزين أياً من الأسماء؟ آه، لا. ربما لا يمكنك ذلك».

قالت هذا بسرعة وقد تذكرت حالة جسيكا.

أضافت وهي تمرّ بإبهامها على إطار اللوحة الداكن:

ـ الرجل الذي رسمها، «ستوبس»، كان رساماً شهيراً، يقول السيد بنتلي إنه كان فناناً نابغة، لكنني لا أعرف الكثير عن هذه الأشياء.

- ولا أنا.

تمتمت جسيكا بلهجة آلية، رغم أنها، عندما نظرت إلى اللوحات، شعرت بصلة وثيقة تربطها بها. كان الأمر وكأنها تفهم الجهد الذي رُسمت به.

- حسناً، لا بأس.

قالت المرأة الآن بعطف ظاهر: «لا أظن أنك كنت تملكين وقتاً للأشياء الفنية، عندما كنت تعملين في سوبر ماركت».

قالت جسيكا مرغمة نفسها على تفكير أكثر واقعية: «هذا صحيح. لا أدري إذا كنت أصلح لذلك، أعني للعمل في السوبر ماركت، لا بد أن ذلك كان سهلاً نوعاً ما. لأنني لم اكن ماهرة قط في الرياضيات».

قالت السيدة هايز على الفور: «وكيف عرفت ذلك؟».

قطبت جسيكا جبينها: «لا... لا أدري».

قالت هذا بارتباك، شاعرة بذلك الذعر المألوف الذي يتملكها كلما حاولت أن تنظّم ما تتذكره.

- إنها فقط الغريزة... فليس لديّ أساس لما أتذكر، حتى أنني لا أتذكر في أي بلد كنت أذهب إلى المدرسة.

- حسناً، لا تهتمي بذلك.

قالت مديرة المنزل هذا بسرعة وهي ترى كيف شحب وجه الفتاة.

- عاجلاً أم آجلاً ستعود إليك ذاكرتك فتتذكرين كل شيء. والآن، اجلسي وسأحضر الشاي. وعندما يغلي إبريق الشاي تكون ليوني وصلت.

لكن مديرة المنزل كانت مخطئة قليلاً في تخميناتها، لأن جسيكا أحست بدخول ليوني إلى البيت بينما كانت تسكب لنفسها كوب الشاي الثاني.

بدت الفتاة، عند العتبة، محتقنة الوجه غير متحمسة لرؤية ابنة عمها الجديدة.

كان واضحاً أن مدرستها تصرّ على ارتداء لباس رسمي، لكن ليوني كانت لها طريقتها الخاصة في الامتثال. فسمحت للرغبة بأن تتدخل، فالقميص الذي كانت ترتديه كان أكبر من مقاسها. وكانت تنورتها أطول مما ينبغي، أما لونها

الخمري فكان مفروضاً عليها. وكانت ضيقة بحيث كانت بحاجة إلى شق خلفي لكي تستطيع الحركة.

أدركت جسيكا نية ليوني في أن تخفي حقيقة كونها طويلة نحيلة، ولكن كل شخص يمكنه أن يرى أنها تعالج ذلك بشكل معاكس تماماً. حيتها جسيكا بقولها: «مرحباً».

وتابعت تقول: «هل كان يومك جيداً؟».

بدا على ليوني وكأنها لن تجيب، ولكن يبدو أنها غيرت رأيها. وشعرت جسيكا بأسى. فهي لا تريد علاقة مؤسسة على الإكراه، ولم تكن تود إقناع أحد بمحبتها.

قالت ليوني وكأنها تجيبها: «الجوّ حار. حار للغاية».

- هل أنت عطشى؟ أتريدين شراباً؟

- بل أفضل الكوكاكولا.

قالت ليوني هذا في الوقت الذي ظهرت فيه مديرة المنزل خلفها.

- لكنني سأغير ملابسي قبل ذلك وأريد أن أرى «بيكا» قبل أن يعود أبي.

فقالت السيدة هايز: «أظن أن أباك يريدك أن تلتزمي بصحبة الآنسة دقلين بدلاً من أن تختفي حتى موعد العشاء».

وعندما رأت المرأة العبوس على وجه ليوني، أضافت تقول: «هذا ما قاله أبوك لي (أخبري ليوني أن عليها أن تتعرف إلى ابنه عمها الجديدة)».

- آه، دعيني.

- ليوني!

- حسناً...

تدخلت جسيكا قائلة بهدوء كارهة أن تكون عبئاً ثقيلاً على الفتاة: «في الواقع، لا حاجة تدعو ليوني للبقاء معي. صدقيني، كنت أفكر في أخذ دوش، وعندما أنهي تجفيف شعري يكون وقت العشاء قد حان».

قالت ليوني بلهفة: «أتعنين ذلك حقاً؟».

فابتلعت جسيكا كبرياءها وقالت متجاهلة امتعاض مديرة المنزل:

- طبعاً، لقد أفسدت عليك عصر يوم أمس. ولا أريد منك أن تظني أنني بحاجة إلى ممرضة.

- على كل حال. . .

ابتدأت مدبرة المنزل بالكلام وإذا بها تغلب على أمرها عندما انفجرت ليوني تهتف بارتياح.

- آه، نعم، لقد نسيت أن أسألك عما إذا كنت تشعرين بتحسن. يبدو عليك ذلك.

وتابعت دون أن تدع لجسيكا فرصة للجواب.

- لا يبدو عليك نصف الشحوب الذي ظهر عليك أمس. وعلى كل حال، سأذهب وأغير ثيابي فقط، ثم أنزل لأشرب زجاجة كوكاكولا يا سيدة هايز. وسأراك أثناء العشاء.

***

٦ - اجتياح المشاعر. .

لم تر جسيكا جايمس بتلي قبل غداء اليوم التالي. وأدركت مبلغ ارتياح ليوني لتخلفه عن العشاء في الليلة الماضية.

- ربما هو في بيكرسلي.

تمتمت ليوني بذلك لكن مدبرة المنزل سارعت تصحح لها معلوماتها: «لا. فهو لم يعد من «هاروغيت» بعد».

والتفتت إلى جسيكا باسمة بسرور: «أنت محظوظة لأنه لم يعد. لو أن السيدة بتلي رأتك تأتين إلى العشاء بهذه الحالة لتملكها الذعر».

وكانت ليوني من الذوق بحيث بدا على وجهها شيء من الخجل لمجيئها إلى العشاء بنفس القميص والبنطلون اللذين ارتدتهما للركوب، لكن جسيكا تكهنت بأن الفتاة أخّرت عودتها للركوب من الإصطبلات لكي تتجنب مواجهة أبيها. وعندما اكتشفت أنه ليس في البيت استغلّت الوضع.

قالت ليوني بصوت منخفض: «أتظنينني أهتم لرأيها بي؟».

وكان ذلك انعكاساً لشعورها هي، جسيكا، نحو زوجة أبيها. ولكن ليس بإمكانها أن تقول هذا، لا الآن ولا غير الآن. ومع ذلك، كانت لورا وكأنها معها على المائدة.

ونتيجة لذلك لم يكن هناك في حديثهما تقريباً، ما يتجاوز أعمال ليوني المدرسية والطعام.

في صباح اليوم التالي، شعرت جسيكا بمزيد من القوة. وبعد أن تناولت

www.elromancia.com

الفطور وحدها، كاليوم السابق، قررت قضاء الصباح في مراجعة محتويات حقيبة يدها، فربما يكون فيها شيء غفلت عنه، فعندما ألقت نظرة على تلك المحتويات في المستشفى، صعقت لأنها وجدت قدّاحة سكائر ذهبية ثقيلة الوزن.

حسب علمها، لم تكن تدخن، أو، على الأقل لم يكن التدخين يجذبها، ولكن ربما كانت اعتادت ذلك. أخذت تفكر وهي تتفحص يديها لترى إن كانتا تحملان بقع النيكوتين. لكنها لم تجد لذلك أثراً.

وكان غريباً ألا تجد في الحقيبة علبة سكائر، لكن ذلك لم يكن مهماً. ربما كانت القداحة هدية، أو ربما لم تكن لها، وبدا لها ذلك معقولاً.

ولكن كان واضحاً أنها ثمينة، ولم تعجبها فكرة أنها ربما احتفظت بشيء ليس لها. ترى هل اشتغلت بسرقة المتاجر، كيف يمكنها أن تعلم؟

نتيجة لذلك، كان الإكتئاب يتملكها حين نزلت لتناول الغداء ووجدت جايمس بتلي قد سبقها إلى المائدة في الغرفة الصباحية. ويبدو أنه كان يتفحص بعض المراسلات عندما دخلت، لكنه ألقى بأوراقه بعيداً وهبّ واقفاً بأدب: «صباح الخير».

قال ذلك بابتسامة متوترة وجر لها كرسياً وانتظر حتى جلست فعاد إلى مكانه وتابع قائلاً: «كنت أتساءل عما إذا كنت بخير. أخبرتني السيدة هايز أنك أمضيت الصباح في غرفتك».

ـ نعم.

قالت هذا بغموض وهي تنظر إلى «كسرولة» اللحم وبُخارها يتصاعد على المائدة.

تردد جايمس لحظة، ثم دفع إناء اللحم نحوها، قائلاً: «أرجوك، ألن تأكلي شيئاً؟».

ـ شكراً.

كبحت آهة، ثم وضعت في صحنها شيئاً بسيطاً من اللحم والخضار، وجاهدت لكي تبدو مستمتعة بالطعام.

سألها: «هل وجدت شيئاً سيئاً».

ـ لا... وهل المفروض أن يكون؟

فقال بهدوء: «يبدو عليك الانزعاج. هل حدث شيء ينبغي عليّ أن أعرفه؟ هل ترى ليوني أثارت استياءك مرة أخرى».

ـ لا.

أجابت على الفور، متلهفة إلى ابعاد أية فكرة من هذا النوع. وتابعت مترددة «أنا... كنت أتفحص محتويات حقيبة يدي، فوجدت قدّاحة سكائر. لكنني لا أتذكر أنني كنت أدخن على الإطلاق».

قطب حاجبيه: «هل قلت قدّاحة؟».

ـ نعم.

ـ حسناً، ربما هي ليست لك. ربما هي لشخص آخر.

ـ هذا ما أنا خائفة منه.

تأملها بفضول: «لماذا».

ـ لماذا؟ لأنها ثمينة. لا أظنك تفترض أنني سرقتها، أليس كذلك؟

ـ سرقتها؟

ونظر إليها غير مصدّق: «لا أراك تظنين ذلك».

فحبست أنفاسها: «لا أدري. وكيف أعرف؟ أنا لا أتذكر شيئاً. قد أكون لصة، من يدري».

ابتسم جايمس بالرغم عنه، وقال هازئاً: «صحيح. من يدري؟ لكنك لم تجعليني أشعر بأنك رئيسة عصابة».

فعضت شفتها: «أنا لا أمزح».

ـ لم أقل إنك تمزحين.

ـ لكنك لست جاداً في قبول كلامي.

ـ بل أنا كذلك. كل ما أظنه هو أن عليك ألا تقلقي من عد نفسك لصة. هذا كل شيء.

ـ وما أدراك؟

تجاهل جايمس سؤالها، وسألها بهدوء: «من الممكن أن تكون القداحة

www.elromancia.com

للفتاة التي كانت جالسة معك. تلك.. تلك التي...».

فقالت بتوتر: «التي ماتت؟ هذا ممكن، ولكن ما الذي جعلني أضعها في حقيبتي؟ هذا شيء غير مفهوم. لا بد إنها تخصني».

- لا بأس، ربما كنت تخليت عن التدخين واحتفظت بها، لا أصدق أنك سرقت القداحة ولا ينبغي أن تظني ذلك. قد تكونين فقدت ذاكرتك، مؤقتاً، لكن أخلاقك لم تتغيّر.

وضعت شوكتها وأزاحت صحنها من أمامها قائلة: «أحياناً أتساءل عما إذا كنت سأتذكر أي شيء. كان ينبغي أن أتذكر شيئاً حتى الآن، ولكن هذا لم يحدث».

تنهد قائلاً: «أنت تذكرت اسم «ريبلي»».

- نعم، ولكن كما قلت أنت، ليس لهذا أية قيمة. كان فقط شيئاً افضت به إليّ الأخرى في القطار.

- حسناً، ربما كنت أنا سلبياً بالنسبة لهذا أكثر مما ينبغي فقد كان هذا شيئاً ما، على كل حال.

ارتجف ذقنها: «لا تمزح معي، أرجوك».

- أنا لا أمزح معك.

- بل تمزح. إنك تتظاهر بأن تذكري لاسم ما، هو شيء هام. أنا لا أتذكر حتى ما كان اسم الفتاة تلك.

فقال بصبر: «كان اسمها شامبرز... سيسيلي شامبرز. جسّ...».

قاطعته: «سيسلي شامبرز؟».

وأخذت تردد الاسم ببطء، متسائلة عما إذا كانت الإلفة التي شعرت بها عندما لفظ جايمس الإسم، يمكن أن تكون مشجعة. ولكن، لا... وإذ تملكها شعور مفاجيء بالذعر، نهضت واتجهت إلى الباب متلهفة إلى الهرب من هذا الإحساس الخانق.

لكن جايمس وصل إلى الباب قبلها، وقد أدرك توترها في اللحظة التي أحست به هي تقريباً. كان أسرع وأطول ساقاً، فأدركها لدى الباب واعترضها

بجسده، فحدقت إليه متحفزة للدفاع.

فقال بهدوء عندما أخذت تغالب دموعها: «لا تفقدي الأمل بهذه السهولة، فأنت هنا منذ يومين فقط. امنحي نفسك بعض الوقت».

فجاهدت لتقول: «هذا.. سهل قوله».

واختنق صوتها ثم انفجرت بالبكاء.

أشاحت بوجهها وهي تمسح عينيها بذعر، محاولة أن تكبح سيل القنوط الذي كان يكتسحها. ليته يدعها وشأنها. لقد شعرت أمس ببعض التفاؤل بالنسبة إلى وضعها، أما اليوم...

ما حدث في اللحظة التالية لم تكن مستعدة له على الإطلاق، ففي الثواني القليلة الماضية ساد الجوّ صمت حذر من الرجل الواقف خلفها، فظنت بأن أمنيتها بأن يدعها وشأنها قد استُجيبت.

لكنه قال بخشونة: «يجب أن تتوقفي عن الشعور بأن هناك وقتاً محدوداً لتستعيدي ذاكرتك».

قالت بتوتر: «أنا... أشعر وكأن ذلك يجب أن يكون».

كانت غير قادرة حتى على التفكير بوضوح، وتأوه جايمس قائلاً: «كفى ضغطاً على نفسك. ستتيسّر الأمور صدقيني، استرخي. وعيشي يومك كما يجيء، وإذا رفضت الذكريات أن تعود، حسناً!... فليكن».

ارتجفت جسيكا، وهي تبتعد عنه. كانت خائفة من مشاعرها وإلى أين قد تقودها.

كان جايمس متعاطفاً معها لأنها ابنة ابن عمه وليس لأي سبب آخر. وهي، من ناحية أخرى، كانت تشعر برجولته بكل ذرة من كيانها.

وأخيراً قالت: «... هذا سهل عليك أن تقوله».

وبشتيمة عديمة الصبر، قال بغضب: «أصبح الآن من الصعب أن نتجنب المواجهة عيناً لعين».

وهزت جسيكا رأسها بعجز عندما أرغمها على النظر إليه، ثم سألها وهو يتفحص ملامحها المرتجفة بعينين كحدّ السيف: «ماذا تريدينني أن أفعل. لا

www.elromancia.com

يوجد هنا من يضايقك، ولا أحد يرغمك على فعل أي شيء. لديك مطلق الحرية في الذهاب متى وحيث تشائين أشكري الله لأنك فقدت ذاكرتك فقط، لأن سيسيلي شامبرز فقدت حياتها!».

فابتلعت ريقها: «أعلم هذا».

فحدق إليها: «أحقاً؟ أحقاً؟ ربما أنت بحاجة إلى هزة عنيفة. هذه ليست مسألة حياة أو موت، يا جيس، إنه مجرد انزعاج مؤقت».

ـ أعرف هذا.

وحاولت أن تتخلص من نظراته لكنه ما زال غير راض عن جوابها. فسألها: «هل تمزحين معي الآن؟».

تملكها شعور مؤقت بالمرح، وواجهته: «وهل تعترف بأنك كنت تمزح معي من قبل؟».

فتراخت ملامحه، وقال: «أرجوك يا جيس. كان يمكن للأمور أن تكون أسوأ بكثير. على الأقل أنت الآن مع أناس... يهمهم أمرك».

ـ أحقاً أنا كذلك؟

وتقابلت أعينهما الآن، فتابعت تقول: «لا يمكنك أن تدعي أن السيدة بتلي تهتم بي، ثم أنت... أنت... صديقها أيضاً، ألست كذلك؟».

ظل جايمس صامتاً عدة لحظات ثم ابتعد بحركة مفاجئة، فشعرت بالحرمان.

ـ علاقتي بلورا لا شأن لها هنا.

قال هذا بعنف، فجازفت: «أليس الأمر هكذا؟ إذن ليس لديك فرق في التعامل معي ومعها في الوقت ذاته؟ أجد تصديق ذلك صعباً».

قطب جبينه وسألها بارتباك: «لقد قالت لك ليوني شيئاً. أليس كذلك؟».

طرفت بعينيها: «ليوني؟».

ـ ماذا قالت لك؟ لقد أنذرتها...

ردت بحدة وهي ترتجف: «لم تقل لي ليوني شيئاً، لكنني لست غبية، فقد... رأيت كيف حيتك أمس».

ـ أحقاً؟

وشعرت بنفوره يمتد إليها ولكنها بدأت، وستكمل حتى النهاية. فقالت وهي تبلل شفتيها: «نعم. وهذا طبعاً لا شأن لي به».

ـ هذا صحيح. لا شأن لك به.

ـ لكن من الواضح أنها مستاءة مني.

ـ وكيف عرفت ذلك؟ لم تكن لورا فظة معك، أليس كذلك؟

ـ ليس أمس. ولكن عندما جاءت إلى المستشفى...

ـ كانت متكدرة، متوترة الأعصاب للغاية. عليك أن تتذكري ذلك. فهي لم تكن تعلم بوجودك في هذا العالم قبل أن يموت أبوك.

ـ أعرف هذا. ولكن... لماذا تلومني...

ـ كانت تلك صدمة. لكنها اعتذرت لك.

ـ أحقاً؟

وشعرت جسيكا بالاستياء بدلاً من القلق الشديد فلم يكن الذنب كله ذنبها، لكنهم جعلوها تشعر بأن الأمر كذلك.

ـ حسب ما أذكره، كان ندمها قصير العمر!

بدا الآن التجهم على جايمس، لكنه سيطر على ملامحه، وقال بكآبة: «هذا الحديث طال بما يكفي. أنت تريدين أن يحسن الآخرون الظن بك، لكنك لا تسامحين الآخرين على أخطائهم؟».

ـ أنا لا أسامح الآخرين على أخطائهم؟

لم تدرك مبلغ الغضب الذي يمكن أن تكون عليه.

ـ أتريدني أن أصدق أنّ موقف لورا بتلي مني هو نتيجة ضعف داخلي؟

فتوتر فكه: «أنت لا تفهمين الوضع كله، وإلى أن تفهميه، أقترح عليك أن تكبتي عدم تصديقك هذا».

ردت عليه بحدة: «أنا أحاول أن أعرف الوضع. فقط لأنك، كما يبدو، مغرم بالمرأة... وأريد أن أعلم إن كان أبي قد اكتشف علاقتكما، أم أن هذا شيء آخر عليّ أن اكبح اهتمامي به».

ما إن نطقت جسيكا بهذه الكلمات حتى أدركت مبلغ ما وقعت فيه من خطأ. ولكن قبل أن تتمكن من الاعتذار، انفجر في وجهها: «كيف تجرؤين؟».

ثم أضاف بغضب عارم.

ـ عليّ أن ألقيك إلى الخارج لمثل هذا الكلام. لقد قال المحامي في لندن إنك امرأة فظة للغاية، كما أن لورا، التي لا تتفكين عن ذكرها بألفاظ ممقوتة للغاية، قد عرفتك على حقيقتك، أليس كذلك؟ هذا الذي يثير حقدك، وليس سلوك لورا. لأنك، حتى ولو فقدت ذاكرتك، ما زلت تلك المرأة الأنانية.

فهتفت جسيكا بذعر: «هذا غير صحيح، أنا لست أنانية...».

ـ وما أدراك؟

وإذ أدرك أنه آلمها، تركها وهو يتابع: «إذا كنت حقاً نسيت من أنت؟».

فشهقت: «ألا تصدقني؟».

واختنق صوتها. وكأنما صرختها اليائسة مست فيه شعور العطف، فأطلق شتيمة خافتة وحدّق إليها شاعراً بالإشمئزاز من نفسه.

ـ هل لديك فكرة عن الإزعاج الذي تسببت فيه؟

ـ آسفة.

وظنت لحظة أنه سينصرف، ولكن شجارهما ذكره بشيء، إذ استمر يتأملها، وأخيراً قال: «أتعلمين؟ أنت لا تشبهين آدم. لا شيء فيك يشبهه أبداً. لا بد أنك تشبهين أسرة أمك. إما هذا وإما أنك شخص آخر».

سألته: «هل تعني أنني قد لا أكون ابنة آدم؟».

تنفس بعمق قائلاً: «لا. ليس هذا ما أقوله. يا الهي.. لم أعد أدري ما أقول. فلننس ذلك قبل أن يفلت زمام هذا الحديث من بين أيدينا».

ابتلعت جسيكا ريقها: «آسفة».

ـ وأنا كذلك.

قال هذا وقد همد طبعه بنفس السرعة التي ثار فيها.

ـ أظننا، نحن الإثنين، بحاجة إلى مزيد من الوقت لنتعود على الوضع. سأنسى ما قلته عن لورا إذا أنت نسيت عنفي معك. آسف إذا كدّرتك.

فالسبب هو امتلاكي قوة في العضلات أكثر من قوة الذهن.

لاحت على فمها ابتسامة باهتة لقوله غير الصحيح. راح يتأملها بنظرات أثارت اضطرابها، وسمّرتها. نظرات جعلتها عاجزة عن إشاحة عينيها. وأدركت على الفور عدم إلفتها لهذه المشاعر القوية التي كانت تكتسحها وأحست بأن جايمس يماثلها بعدم قدرته على فصم اتصالهما هذا.

وكما هو مفروض، كان جايمس هو الذي ثاب إلى رشده أولاً. وبضحكة مرغمة هي أشدّ تدميراً من أي قوة غضب، ابتعد عنها وتراجع إلى الخلف.

وابتسم. إذا كان هناك توتر ما في قوله هذا، فقد أخفاه بسرعة وهو ينظر إلى ساعته الذهبية ثم يتأوه: «انظري إلى الوقت. عليّ أن اذهب لأن مشترياً سيأتي بعد ربع ساعة، سوف نتحدث... فيما بعد مرة أخرى. من يدري، ربما سيكون بإمكاني أن أقنعك، أنت ولورا، أن تتبادلا القبلات وتتصالحا، أنتما أيضاً».

جمدت جسيكا ارتباكاً. لا شيء يمكن أن يوحي إليها بالخزي والحقارة، أكثر مما قاله.

لقد كانت عاصفة المشاعر التي عرفتها هذه، مسألة خداع، حسب قوله، ورغم أنه أخذ الأمر بالضحك إلا أنها كانت تشعر بالأذى والاذلال الكلي. قال وهو يفتح الباب: «ستعذرينني، أليس كذلك؟».

وسرّها أن يكون جوابها هو الإيماء فقط. وقال وهو يرغم نفسه على ابتسامة اعتذار أخرى.

ـ عظيم، إلى اللقاء هذا المساء إذن. وداعاً.

* * *

٧ ـ دفّة القلب.. ترجح

بعد أسبوع من تركها المستشفى، صحبها جايمس إلى المستشفى لمراجعة الطبيب محدداً.

كان الموعد مع الدكتور باتل في الساعة الثانية والنصف عصراً. وتمنى جايمس لو يعهد بمسؤولية مرافقة جسيكا إلى «تيد بيسلي» إلا أن الموعد الذي ضربه هو نفسه مع «توبي لانغلي» جعل هذا متعذراً.

كانت الرحلة حافلة بالتوتر. وفي الواقع، كان الاسبوع بأجمعه حافلاً بالتوتر.. كل شيء فيه يعني الكثير، وقد وجد أسباباً كثيرة للبقاء خارج البيت، وبالتالي بعيداً عن صحبة جسيكا، إلا أن إحساسه بوجودها في بيته، نادراً ما كان يفارقه. فقد تركه ذلك المشهد المشؤوم الذي حدث في الغرفة الصباحية في حالة غضب وإحباط أفسدت عليه الأسبوع.

ما زال غير واثق مما حدث. حاولت جسيكا أن تصلح الأمر. ولكن ما تعذر عليه فهمه، هو ذلك الانجذاب الذي شعر به. في لحظة واحدة... نسي ليوني ولورا وآدم... وكل شيء، وكل ما كان حقيقياً هو تلك المشاعر التي أثارتها فيه ابنة ابن عمه.

وطبعاً، كان عليه أن يتخلّص من ذلك. فهو رجل ناهز الاربعين ولم يعد تلميذاً صغيراً، ومهما يكن ذلك الذي تملكه، فعليه أن يرفضه بحزم، وقد بقي غاضباً محبطاً وهذا ما جعله يفقد هدوءه... وكان يمكنه أن يتصور تماماً ردة فعل ابنته إذا هي اكتشفت سلوكه. وحدث نفسه ثائراً بأن كل هذا لا ينبغي أن

يعني شيئاً. إن مشاعرها مهما كانت قوية، لا تصلح أن تكون سبباً لعاصفة من تقريع الذات.

مضت عدة أيام منذ رأى لورا وحدها. وكان ترتيب موعد للقاء عند المحامي، طريقة لتظهر له استياءها. وقد اتصلت به في الليلة السابقة لتخبره بالموعد، متعمدة ألا تمنحه فرصة للاعتذار، بموعد آخر: «كن هناك».

قالت له ذلك باستياء ظاهر. ورغم أن جايمس، في ظروف أخرى، كان سيعترض، إلا أن ضميره أخبره بأن لشعورها ما يبرّره.

أمضى الاسبوع مشغولاً بعمله، ولم تظهر ليوني اهتماماً يذكر بالأعذار التي كان يختلقها كل مساء للتغيب عن مائدة العشاء. بل العكس، فقد تملكه الارتياح وهو يرى أن ابنته، كما يبدو، قد اذعنت لمشيئته في البقاء في المدرسة ثلاث سنوات أخرى.

ـ كان بإمكاني أن استقل «الباص».

قالت جسيكا هذا وكأنها أحست بعدائه. ومرة أخرى شعر جايمس بموجة من فروغ الصبر المرّ وبعدم قدرته على إخفاء مشاعره، وقال وهو يفكر في جواب مناسب: «الباص؟ ولماذا تذهبين بالباص؟».

ـ حسناً، لأوفر عليك هذه الرحلة فأنا قادرة على ذلك تماماً كما تعلم. ولم أشعر منذ أيام، بصداع حقيقي. وأنا أفكر فعلاً في أن عليّ أن أغير المناظر.

أجاب بشكل آلي وهو يهز رأسه حنقاً: «ماذا تعنين بذلك؟».

بدا شيء من الارتباك على جسيكا، وقالت: «مضت أسابيع الآن على ذلك الاصطدام، و... حسناً ربما أصبح لزاماً عليّ أن أتعهد مسؤولية نفسي».

ـ لا تكوني سخيفة!

وذُهل وهو يرى نفسه يرفض اقتراحها هذا بعنف.

ـ لا ينبغي أن تحاولي العناية بنفسك. أين ستعيشين؟ إلى أين تذهبين؟

شحب وجهها قليلاً لهجومه العنيف هذا، لكنها أجابته بثبات: «أنا... أتصوّر أن لي بيتاً، في مكان ما. لا بد أن يكون ذلك. فأنا لم أعش مع أبي كما يعرف الجميع، وإذا كنت في القطار قادمة من... لندن، فلا بد أنني كنت

أعيش هناك».

- لا.

ابتلعت ريقها بصعوبة: «ماذا تعني بقولك! لا؟ ربما هناك شقة... أو... أريكة للنوم في غرفة مشتركة».

وقطبت جبينها: «أتعرف... نعم، نعم، أنا اتذكر غرفة».

وحبست أنفاسها، ولم تعرف ما إذا كان هذا بسبب الألم أو التركيز.

- و... أريكة للنوم. أكاد أكون واثقة من ذلك.

فتوتر فمه وقال دون أن يستطع إخفاء تهكمه: «فجأة تتذكرين هذا القدر من الأشياء».

فشهقت: «لا أظنك تتصور أنني اخترعت كل هذا، أليس كذلك؟».

أكملت ساخطة: «انتظر لحظة... هناك صورة في ذهني لغرفة. أوافق على أن هذا ليس شيئاً كثيراً، لكنه يستحق التحقيق فيه».

تنهد جايمس وهو يخفي غضبه بصعوبة، وسألها: «وما الذي تريدين التحقيق فيه؟».

- وماذا تظن؟ المكان الذي عشت فيه إلى حين وقع الحادث طبعاً.

كان يعلم ما سيأتي. وكان ذلك مجرد مسألة وقت إلى أن تتحقق نهائياً من هذا بنفسها، ولكن كيف يوضح لها بأنها ألغت كل ارتباطات حياتها القديمة قبل أن تترك لندن، دون التطرق إلى ذكر الموضوع الذي لا يفضل الخوض فيه.

وتنفس بعمق قبل أن يقول بتوتر: «لا أظنك أصبحت جاهزة لمثل ذلك التحقيق بعد. لقد ناقشنا ذلك الأمر من قبل، يا جيس، لا حاجة بك للتعجل في الأمر. كوني صبوراً متمهلة».

فحدقت إليه: «لولا أنني أعقل من ذلك، لظننت أنك تحاول أن تعيق استعادتي لذاكرتي».

تملكت جايمس الشكوك لحظة، ثم قال: «لكنك أعقل من هذا، أليس كذلك؟».

- أحقاً أنا كذلك؟

وبدا عليها الكراهية لترك الموضوع، بينما اشتدت أصابع جايمس حول عجلة القيادة، وقال وهو يسمعها تتنهد لا إرادياً: «بل ينبغي عليك أن تكوني. اسمعي، يا جيس، ما الذي استفيده من إبقائك هنا في أسبن؟».

فاحنت برأسها: «لا أدري».

لم يستطع جايمس صبراً فقال: «ألا تستطيعين أن تتصوري أنني أريدك أن تتعافي؟ طبعاً هذا ما أريده».

- ولكن هل السيدة بتلي كذلك؟

تمتمت تقول بصوت خافت، فهتف يسألها: «السيدة بتلي؟».

أومأت بالإيجاب وقالت مدافعة:

- حسناً، إنها... قريبتك أليس كذلك؟ وأنت تعلم بشعورها.

- أنا أعلم أنها تهتم بك مثلي أنا.

قالت بعنف: «آه، دعك من الألاعيب، فأنت تعرف ما أتحدث عنه. ومن يعرف ذلك أفضل منك؟ قد اكون بطيئة الفهم، لكنني لست غبية؟».

- لا أدري ما صلة علاقتي بلورا بهذا الأمر.

لوت شفتيها: «لا تدري؟ من الواضح أن السيدة بتلي مستاءة لأن أبي ترك لي شيئاً في وصيته».

فقال مخفياً ارتباكه: «ماذا تعلمين عن ذلك؟».

سألها وكاد يزل لسانه بالاعتراف دون وعي، ولكن لحسن الحظ، لم تلحظ خطأه فتابعت تقول: «حسناً، المفروض أنه ترك لي بعض المال. لقد لمحت السيدة بتلي لي يوماً عن أملاكه، وأظن أن هذا ما كانت تعنيه. لكنني لم أطلب هذا منه، أليس كذلك؟».

كانا يدخلان مدينة «ليدز» الآن. واخذت الشوارع العريضة في الضاحية تحل محل المنازل الانيقة، وفضل جايمس أن يترك الحديث لكي يركز ذهنه على القيادة.

ولكنه فجأة اهتز لأنه تذكر وجودها مرة أخرى عندما قالت: «على كل حال، سأسأل الدكتور عن رأيه في ما عليّ أن أفعله. فأنا واثقة بأنه لن يكون

هناك غاية وراء قوله».

فتنفس جايمس بعمق: «وهل تظنين رأيي كذلك؟».

سألها هذا بخشونة، فبدا عليها الارتباك: «أنا... أنا لم أقل هذا. لا أدري كيف أفكر».

وتقابلت عيناها غير الواثقتين بنظراته المتأملة الكئيبة.

ـ أنت لطيف جداً معي. ولكنني أتساءل أحياناً عن السبب.

كبح جايمس دافعاً غير مرغوب فيه لأن يوقف السيارة ثم يأخذها بين ذراعيه. لكنه، بدلاً من ذلك، حول انتباهه إلى سيل حركة السير الضوئية. من الجنون أن يفكر بهذا الشكل بينما مستقبل لورا يعتمد على قدرته... بل قدرتهما... في التأثير على هذه الفتاة. واقناعها بان بيع المصنعين اللذين توارثتهما الأسرة أجيالاً ليس قسوة وعدم مراعاة للمشاعر فقط، وإنما هو جنون، ولكن كان من الصعب أن يربط بين جسيكا التي يعرفها، وبين تلك الفتاة النهمة إلى المال كما وصفها عمامي ابن عمه في لندن.

سألته فجأة: «هل أنت غاضب مني؟».

ومرة أخرى اكتسحه صراع مشاعره. وقال باختصار، تاركاً إياها تفهم ما تشاء من اختصاره هذا: «لا. لا طبعاً».

* * *

وصل جايمس إلى مكتب «توبي لانغلي» بعد الموعد المحدد بقليل، ورغم أنها أصرت على أن بإمكانها أن تعرف طريقها إلى مكتب الدكتور بانل دون مساعدة، أصر على مرافقتها على امتداد ممرات المستشفى، ونتيجة لذلك، كان ملزماً بأن يتبادل بعض الكلمات مع طبيبها قبل أن يتركهما، واقترح الطبيب أن يتحدث جايمس إليه بعد انتهائه من فحصها، وطلب منه أن يذهب إلى عمله الآن على أن يعود إلى المستشفى لاحقاً. وكانت لورا تذرع مكتب «توبي» عندما أدخلت السكرتيرة جايمس.

هتفت به وكأنه تأخر ساعة وليس عشر دقائق فقط: «أين كنت؟».

تبادل جايمس نظرة ارتباك مع توبي. وأجاب متجاهلاً ثورتها: «في طريقي

إلى هنا. مرحباً يا توبي. يسرني أن أراك مرة أخرى».

ـ وأنت أيضاً يا جايمس.

وأشار إلى كرسيين أمام مكتبه: «ألا تجلسان؟».

نظر جايمس إلى لورا، فشعرت بان مزاجه غير مستقر. فقالت له بنعومة: «آسفة لانفجاري ذاك».

تقبل منها هذه المودة، قائلاً: «لا بأس، يا حلوة».

وبدا الارتياح على توبي وهو يرى تبدد احتمال انفجار الوضع بينهما. وقال: «هل لكما بشيء من القهوة؟».

فقال جايمس على الفور تاركاً ملامح لورا تتصلب قليلاً: «بل أفضّل البدء بالعمل. عليّ أن اقابل الدكتور بانل في المستشفى خلال أقل من ساعة. لقد تركت جيس في أول مراجعة لها للطبيب عصر هذا اليوم، وقد يستطيع أن يعطيني فكرة عن حالها».

سألته لورا على الفور: «هل هذا سبب تأخرك؟».

أجاب: «ربما».

ثم قال يخاطب توبي: «ما زالت جيس فاقدة ذاكرتها».

فقالت لورا ساخرة: «إنها (جيس) إذن؟ يا للتآلف».

فأجابها ببرودة: «إنها ابنة ابن عمي، كانت تسألني اليوم لماذا تلومينها على وصية والدها..».

حبست لورا أنفاسها: «أتعني أنها تعرف بأمر الوصية؟ هل أخبرتها أنت؟».

جذب نفساً، وردّ عليها قائلاً: «لا، طبعاً لا».

ثم أضاف، شاعراً بالإشفاق عليها: «لا تلومي سوى نفسك لمعرفتها بأمر الوصية».

ـ أنت تتحدث عما قلته لها قبل أن أعلم أنها لا تتذكر ما حدث لها.

فلوى شفتيه: «نعم. وبذلك وضعت هذه الفكرة في رأسها».

فتدخل توبي قائلاً بعد أن رأى أن جدلهما عاد يشمل الأمور الخاصة: «هذا

www.elromancia.com

يصل بنا إلى موضوع هذا الاجتماع. الأمر هو هكذا: وصية آدم تنص، بشكل غير مشروط، على أن الآنسة دقلين هي المستفيدة الرئيسية. وحيث أنني أقدّر الصعوبات التي نشأت بسبب فقدان الآنسة دقلين ذاكرتها، هل لنا أن نقول إن هناك التزامات أخرى يجب إتمامها؟».

عندئذ منحته لورا اهتمامها الكامل، وسألته: «أي التزامات؟».

فقال توبي وقد بدا عليه الضيق للدور الذي كان عليه أن يؤديه: «حسناً، بالرغم من حالة الآنسة دقلين، فهي ما زالت وريثة أبيها. وعاجلاً أم آجلاً يجب إبلاغها بذلك».

قالت لورا باستياء: «لماذا؟ وما فائدة ذلك؟».

قال جايمس: «أتصور أن توبي يعني أن شروط وصية آدم تبقى سارية المفعول مهما كانت حالة جس الذهنية».

أومأ المحامي برأسه قائلاً وهو ينظر إلى جايمس شاكراً: «بالضبط. بصراحة تامة، هيغز، وهو المحامي في لندن الذي لديه معاملات زوجك الراحل، يثور طالباً التصرف في الأمر، وإذا لم أخبره بأنني أقوم فعلاً بالعمل في القضية، أخشى أن يأتي لتولي الأمر ورؤيتها بنفسه».

حبست لورا أنفاسها، وسألته: «ولكن، ألا يمكنك منعه؟».

تنهد توبي: «وعلى أي أساس؟ فهو يرى شروط الوصية سهلة غير معقدة. الآنسة دقلين ترث كل شيء، باستثناء مبلغ سنوي صغير، وحقك في أن تسكني المنزل بيكرسلي طالما بقيت أرملة».

ـ نعم يا توبي. شكراً لإعلامي عن قسوة آدم مرة أخرى، لكن هذا لم يكن ضرورياً حقاً. إن شروط الوصية مكتوبة على قلبي.

وتنهد جايمس الآن؛ وهتف شاعراً بالذنب: «لورا، توبي يوضح فقط مبلغ الصعوبة التي أصبح عليها الوضع. إنه لا يحاول أن يؤلمك...».

أومأ توبي: «بالضبط. حاولي أن تفهمي وضعي يا لورا».

فقالت لورا بمرارة: «وماذا يحدث إذا هي لم تسترجع ذاكرتها قط؟ هل سيكون عليّ أن أسلم كل شيء إلى فتاة لا تستطيع حتى أن تتذكر اسمها؟ يا إلهي

هذه قسوة بالغة. يجب أن يكون بيكرسلي ملكي».

تبادل جايمس نظرة طويلة مع المحامي، ثم قال بهدوء: «عليك أن تمنحنا يا توبي أسبوعين آخرين ونكون لك شاكرين... حسناً، وحتى ذلك الحين قد يحدث تغير في حالة جيس. إذا أمكنك أن تهدىء ذلك الرجل في لندن لأسبوعين آخرين فإن صحة جيس ستتحسن وتصبح قادرة كما أظن، على احتمال الصدمة الآتية».

فقالت لورا ساخطة: «الصدمة الآتية؟ جايمس، ما الذي تحاول أن تفعله بي».

فقال جايمس بوجه خالٍ من أي تعبير: «أحاول أن أكون موضوعياً».

ثم التفت إلى المحامي مضيفاً.

ـ حسناً، يا توبي، ما هو رأيك؟ هل يمكنك أن تقنع هيغز بالانتظار عدة أيام أخرى؟

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة عندما عاد جايمس إلى المستشفى. وعندما أصبحا خارج مكتب المحامي، أوشكت لورا على البكاء وهي تقول:

ـ أنت لا تريد أن توصلني إلى بيكرسلي، أليس كذلك؟

أخذها جايمس إلى مقهى قريب وأحضر لها الشاي، فتابعت: «أنا حقاً لا أريد أن أعود وحدي إلى البيت».

والنتيجة أن لورا كانت إلى جانبه، عندما أدخل أخيراً إلى مكتب الطبيب الذي رفع حاجبيه مستفهماً لتطفلها غير المنتظر فقال جايمس معتذراً: «الذي دار بيننا في مكتب المحامي، أخذ وقتاً أطول مما توقعنا».

قال هذا بشيء من الضيق ثم أضاف: «هل تعرفت إلى السيدة بتلي زوجة ابن عمي الراحل؟ هذا هو الدكتور باتل، يا لورا، كانت جيس... جسيكا في رعايته عندما كانت مريضة في المستشفى».

صافحها الدكتو محيياً، لكن جايمس أحس أنه ليس مسروراً بوجودها.

كانت لورا هي التي افتتحت الحديث، قائلة: «وهكذا، يا دكتور باتل،

www.elromancia.com

هل لديك خبر طيب لنا؟».

توتر فم الطبيب لحظة قبل أن يجيب: «هذا يتوقف على ما تعنين بالخبر الطيب، يا سيدة بتلي».

اغتنم جايمس الفرصة ليسأل: «أين هي جيس، على أية حال؟».

سأله نصف خائف من أن يكون عاد فأدخلها المستشفى، مهما كانت حالتها، ولكن الطبيب طمأنه: «إنها موجودة في قسم الأطفال. عندما تأخرت، سألت إن كنا نسمح لها بالذهاب لرؤية الأطفال، وسرعان ما كانت ترسم لهم صوراً وتقص عليهم الحكايات».

وابتسم: «هل هي ابنة اختك؟».

ـ بل ابنة عمي.

ـ آه، نعم، ابنة عمك.. لديها استعداد طبيعي للرسم يا سيد بتلي، لا أدري إذا كان في ذلك ما يساعدنا. لكن موهبتها الفنية جديرة بالاعتبار.

فدهش جايمس: «أحقاً؟».

القليل الذي عرفه عن ماضي جسيكا دئلين، لم يجعله يعتقد بأن لديها موهبة فنية خاصة، ولكن أية معرفة، مهما كانت صغيرة، كانت مرغوبة.

وتابع الطبيب وعيناه تتنقلان بينهما: «نعم، حقاً. هل أفهم أن هذا لن يساعدنا من أية ناحية؟ أليس في العائلة من له هذه الموهبة؟».

ـ ليس على حد علمي.

قال جايمس هذا وهو يتذكر عدم اهتمام آدم بكل العلوم أو الفنون.. كان آدم رجل عمل وليس رجل فكر، ومن المؤكد أنها لم ترث خيالها المبدع من ناحيته.

قالت لورا فجأة وقد بدأ شعورها بالإحباط يظهر على وجهها: «ألا تريان أننا خرجنا عن الموضوع؟ سواء أتمكنت أم لم تتمكن من تخطيط بعض الصور للأطفال، فهو ليس موضوعنا هنا، بكل تأكيد. ما أريد أن أعرفه هو ما إذا كان هناك أي احتمال في استعادة ذاكرتها في المستقبل القريب! وأما مهارتها في اللعب واللهو فغير مهمة أبداً».

فقال الطبيب بحدة قبل أن يتمكن جايمس من استرضائه: «ما كنت لأسمي ذلك (لعباً ولهواً) يا سيدة بتلي. أي شيء تقوم به ابنة زوجك، هو ضروري جداً لشفائها».

ـ إنها ليست ابنة...

واحمر وجهها: «لم أعرفها قط قبل... قبل الاصطدام».

ـ لا.

أحنى الطبيب رأسه، وقالت لورا رافضة أن تُقهر: «حسناً، على كل حال، هل هناك أي تقدم؟ وهل ستتذكر؟».

أجاب الطبيب:

ـ حسبما أراه، ليس هناك ما يجعلنا نفترض عدم شفائها. صحتها جيدة. وقد شفيت من ارتجاج المخ. وليس هناك أية آثار أخرى لمحنتها.

ـ أنت لا تظنها مخادعة، أليس كذلك؟

جاء سؤال لورا دون توقع، فذهل الرجلان لذلك.

لا يمكن أن تكون لورا جادة، بهذا أخذ جايمس يفكر غير مصدق. ما الذي تحاول أن تفعله هنا؟ أن تجعل الدكتور عدواً لها؟

ومرة أخرى سبقه الطبيب إلى الجواب، مقطباً باستياء: «مخادعة؟ هل تسألينني عما إذا كنت أظن ابنة زوجك مخادعة؟».

ـ إنها ليست ابنة... آه، حسناً، نعم. هذا هو سؤالي.

وأطبقت اصابعها على حقيبة يدها بتشنج وهي تضيف مدافعة: «هذه ليست فكرة جنونية. الناس جميعاً يخطئون».

تأوه الطبيب: «ولكن ليس في وضع كهذا، كما أظن فليس لدى ابنة زوجك أي سبب يجعلها تدّعي فقدان الذاكرة، فهي وريثة زوجك الراحل، أليس كذلك؟ ولديها كل المصلحة في أن تستعيد ذاكرتها».

ثم وقف وهو يتابع: «سأخبر الآنسة دئلين بأنكما هنا».

بقيا وحدهما هنيهة وذهب الطبيب ليرسل ممرضة لتخبر جسيكا بقدومها. لم يضيّع جايمس وقتاً ليوضح مشاعره: «هل جننت تماماً؟ ماذا تستفيدين من

www.elromancia.com

التلميح بأنها قد تكون كاذبة؟ إن لديها، كما قال الطبيب، كل المصلحة لكي تقول الحقيقة».

- أحقاً لديها ذلك؟ حسناً، أنا لست واثقة إلى هذا الحد.

وقفت خلف الكرسي الذي كانت تجلس عليه، ثم قالت:

- فكّر في أنها في وضع مريح جداً حالياً، أليس كذلك؟ فهي تعيش في «أسبن» مستمتعة بالحرية، دون مسؤوليات...

- آه، لورا...

لكنها تابعت بحزم.

- وجودها معك هو وضع جذاب. أنت تعلم أن الفتيات ينجذبن إليك أليس كذلك؟ ابن عم أبيها، المحسن إليها، بطلها! من المؤسف أنك لا تمتطي حصاناً أبيض، يا عزيزي. أنا واثقة من أنها تراك فارس أحلامها.

شعر جايمس برغبة قاهرة في إسكاتها، لكنه كبح نفسه. ففي كلامها شيء من الحقيقة.

* * *

٨ ـ الوهم لا يدوم

كما كانت جسيكا تأمل، كان جايمس على مائدة الفطور عندما دخلت الغرفة. لقد أخذت المناسبات التي تراه فيها، تتناقص شيئاً فشيئاً، ومنذ زيارتها المستشفى الأسبوع الماضي لاحظت أنه بدأ يتجنبها.

نعم، يمكنها أن تفهم السبب فقد كانت السيدة بتتلي معه عندما جاء ليأخذها من المستشفى، وكان واضحاً من تصرفهما أنهما أمضيا فترة بعد الظهر معاً. ولم تدع لورا فرصة تمرّ دون أن تبرهن لجسيكا قوة علاقتها بجايمس.

وفي الواقع، كانت ذكرى ما حدث بينهما، هي التي جعلتها تنهي أي تقرب إليه. آخر ما كانت تريده، هو أن يظن أن لديها أية دوافع خفية إلى التماس صحبته، ومع ذلك كان هو الشخص الوحيد الذي يمكنها التحدث إليه..

كان وضعاً مقلقاً حقاً، وما زاد الطين بلة عو عدم رضا الطبيب عن نتيجة الفحص وعدم تنبؤه بالوقت الذي قد تستعيد فيه ذاكرتها.

ومن ثم، كان الحل الوحيد المعقول، هو أن تعود إلى الأماكن التي عرفتها قبل الاصطدام. كان عليها أن تلاحظ أن أحداً من الماضي، لم يبد اهتماماً كافياً لها، أو كلف نفسه عناء الحضور لرؤيتها. لقد أخبروها بأن ليس لها اقارب آخرون، وقد اقتنعت بذلك ولكن كان مفروضاً بمالكة المنزل الذي كانت تقيم فيه، أن تتنازل للسؤال عن حالها، مثلاً ألا تريد أجرة السكن؟ ثم ماذا بالنسبة إلى وظيفتها؟ أتراها تركت وظيفتها اعتماداً على مال أبيها؟

كانت هذه الأفكار في الماضي، تسبب لها صداعاً وكآبة بشكل لا يطاق.

www.elromancia.com

ولكن عندما اخذت تستعيد قواها تدريجياً بدأت تشعر بلهفة شديدة في داخلها، لمعرفة من كانت وماذا نوت أن تفعل. ولكن الأهم من كل شيء آخر، هو رغبتها في وضع علاقتها بجايمس في أبعادها الصحيحة، لأنها ما دامت معتمدة عليه، فلن تستطيع أبداً منع نفسها من الوقوع في غرامه.

عندما دخلت إلى الغرفة تأكدت من أن جايمس لا يجد وجودها في بيته أيضاً فنظرته عندما رفع بصره عن فطوره ووجدها واقفة عند العتبة فضحت انزعاجه. ومضت لحظة شعرت فيها بما يكفي من الإحباط لكي تستدير وتعود أدراجها إلى غرفتها. لكن التشبث والإصرار ثبّتا من عزيمتها، فتقدمت وأمسكت بكرسي دفعته أمامها نحو المائدة، وهي تقول:

ـ هل... هل تمانع إذا جلست معك؟

مضت لحظة صمت أفلت جايمس خلالها نصف قطعة الخبز التي كان يأكلها ثم هبّ واقفاً، وقال: «تفضلي».

وأخذ ينظر إليها حتى جلست ثم تابع يقول: «لكن الحقيقة هي أنني كنت على وشك الخروج. علينا أن نذهب أنا وتيد إلى «كامبريا» هذا الصباح، وعليّ أن أبدأ باكراً».

ـ آه، ولكن...

وعادت جسيكا فوقفت عندما حاول أن يتجاوزها خارجاً، وألقت بنفسها بينه وبين الباب. وقالت: «أرجو منك أن لا تذهب. ليس الآن».

فقلب شفتيه: «جسيكا، لقد أخبرتك لتوّي...».

فقاطعته: «أن عليك الذهاب إلى كمبريا هذا الصباح. أعرف هذا، وأيضاً أعرف أنها رحلة طويلة. ولكن عليّ أن اتحدث إليك، لأنني، مؤخراً، لم أجد فرصة لذلك».

فتنهد: «جسيكا...».

ـ لا. استمع إليّ. كلامي صحيح، دوماً عندما أنزل للفطور أجدك قد تناولت طعامك وخرجت. وعندما لا تتناول غداءك مع الزبائن تأكل شطيرة مع تيد في الإصطبلات. وعند العشاء، أنت تتناول عشاءك عادة في مكان آخر.

جاهد بشكل واضح لكبح فروغ صبره، قبل أن يقول متوتراً: «وما ذنبي إذا كنت لا تنهضين من النوم قبل خروجي صباحاً؟».

ـ ما ذنبك؟

ونظرت إلى ساعة الحائط.

ـ إنها السابعة إلا ربعاً يا جايمس، متى يفترض أن أنهض من فراشي؟ في السادسة والنصف؟ أو ربما في السادسة؟ والسؤال الأهم هل ترغب في أن أتناول الفطور معك؟

ألقى على ساعته نظرة اعياء ثم ردّ بحدة: «المسألة فقط أنني الآن على عجل فتيد وبات غرايدي بانتظاري».

ـ لا بأس!

وارتجف صوتها قليلاً لكنها أرغمت نفسها على الاستمرار.

ـ ومع ذلك أريد أن اتحدث إليك. وقد نهضت باكراً هذا الصباح لكي أتمكن من ذلك.

فهز كتفيه: «حسناً، أنا آسف».

ـ أنت لن تمنحني عدة دقائق إذن؟

بدا عليه التردد لحظة، ثم عاد فقال: «لا أستطيع ذلك يا جسيكا».

ـ حسناً جداً.

ورفعت كتفيها وأنزوت جانباً.

ـ ولكن لا تندهش إذا لم تجدني هنا عند عودتك. فلديّ أنا أيضاً أعمال علي القيام بها، وإذا...

لكنها لم تنه كلامها لأن جايمس، الذي كان قد وصل إلى الباب، استدار فجأة لمواجهتها، ثم سألها: «ماذا قلت؟».

وكان عليها أن تقوّي نفسها فلا تخضع لتهجمه: «قلت لك...».

فقاطعها غاضباً: «نعم، تباً لك، أنا أعرف ما قلته. لا بأس. سأغيّر صيغة كلامي، (إلى أين تظنين نفسك ذاهبة...؟)».

فقالت بصوت خافت: «ماذا بالنسبة إلى لندن؟ أنا اعرف ما قلته عن

انشغالك. ولكن ألا ترى أن عليّ أن أفعل شيئاً».

ـ لماذا؟

ـ أنت تعلم لماذا.

فقال عابساً: «أحقاً؟ أظننا تحدثنا عن كل شيء الأسبوع الماضي ونحن في طريقنا إلى المستشفى واتفقنا على...».

ـ لم نتفق على شيء. فقط درنا حول الموضوع كما سبق أن فعلنا من قبل. ثم... ثم إن الدكتور باتل يظنني قوية بما يكفي لكي أصبح مسؤولة عن نفسي.

ـ هذا ليس ما قاله لي.

ـ ما الذي قاله لك؟

فتأوه متثاقلاً: «ليس الكثير في الواقع. لكنني واثق للغاية من أنه لن يسمح لك بالسفر إلى لندن بمفردك. كوني عاقلة، يا جيس، إمنحي نفسك مزيداً من الوقت».

مخاطبته لها باسم (جيس) كادت تقنعها ولكنها رغم كل شيء قالت بحزم: «لا أظن أن الوقت يحل المشكلة. أريد أن اقوم بعمل إيجابي، فلم أعد أستطيع الجلوس هنا بانتظار نزول الوحي علي».

أطلق جايمس شتيمة ثم قال: «لا بأس أنا أفهم شعورك بالملل.. ولكن...».

ونظر إلى ساعته ثم توترت شفتاه.

ـ امنحيني على الأقل الفرصة لأذهب معك. طريق لندن طويل كثيراً بحيث لا يصح لك الذهاب بمفردك، خصوصاً وأنت لا تملكين فكرة أولية عن المكان الذي ستذهبين إليه عند وصولك.

فقالت مترددة: «ربما».

ـ ربما ماذا؟

ـ ربما عند وصولي إلى هناك سأعرف إلى أين أذهب.

ـ جيس!

كان صوته محبطاً فأذعنت على كره منها.

ـ حسناً، لا بأس. لن أذهب إلى لندن أثناء غيابك في كامبريا.

ـ هل هذا وعد؟

فتنهدت: «نعم».

ـ هذا حسن.

كان ارتياحه واضحاً، وتساءلت، بشيء من الشعور بالذنب، إن كان هناك شيء آخر في وصية أبيها. شيء ما زالت لا تعرفه، شيء يجعل جايمس يحتفظ بها هنا قدر الإمكان، ولكن هذا يبدو غير محتمل. إلا إذا كان لذلك علاقة بلورا بتلي.

ولكن قبل أن تجد طريقة تعبر فيها عن شكوكها بشكل مقبول، كان جايمس قد اعتذر وخرج، تاركاً جسيكا تواجه يوماً أصبح أطول من المعتاد بسبب استيقاظها باكراً. كما زاد الطين بلّة ابتداء قطرات المطر بالهجوم على نوافذ الغرفة الصباحية، وتجهم السماء بكثير من الغيوم. جلست على كرسيها مكتئبة وقد هبطت معنوياتها، ووضعت مرفقها على المائدة مسندة ذقنها إلى يدها وأخذت تحدق في الفضاء.

كانت السيدة هايز قد رفعت أطباق جايمس، وأحضرت لجسيكا عصير برتقال وقهوة وخبزاً محمصاً وفي هذه الاثناء ظهرت ابنة جايمس. فدخلت الغرفة، وهي ترتدي بنطلوناً وكنزة فضفاضة، ثم جذبت كرسياً نحو المائدة فجلست عليه وأخذت تسكب لنفسها عصيراً من الإبريق.

ـ صباح الخير.

قالت هذا وهي تنظر إلى جسيكا متحفظة كعادتها.

ـ إنه صباح تعيس، أليس كذلك؟

ـ هل خرج أبي مع بزوغ الفجر؟

رفعت جسيكا كتفيها: «أظن هذا».

كان جوابها فاتراً، ثم، وهي ترى ليوني تحاول أن تكون مهذبة أكثر من المعتاد، أضافت: «خرج منذ نصف ساعة تقريباً. ويدهشني أنك لن تذهبي معه».

ـ أنا؟

فأومأت جسيكا: «ولماذا لا؟ فهذا على ما يبدو إجازة لك من المدرسة... لديك يوم إجازة من المدرسة أليس كذلك؟».

فأجابت ليوني دون مبالاة: «نعم. أنا خارج المدرسة اليوم».

فقطبت جسيكا حاجبيها وسألتها:

ـ هل أنت في إجازة أم ماذا؟

تنهدت ليوني: «نعم، أنا في إجازة».

فترددت جسيكا: «هل هي للمدرسة كلها؟».

عندئذ رفعت ليوني إليها بصرها وقد بدا التحدي على وجهها الشاحب: «وهل هذا مهم؟ وما شأنك أنت بهذا؟ هل أنت حارستي؟».

ـ لا.

لعقت ليوني شفتها، ثم قالت كارهة: «لا بأس. إنها ليست إجازة. لكنني لم أشأ الذهاب، ولماذا لا؟ إنها حياتي».

هزت جسيكا كتفيها: «هذا صحيح. إنها حياتك، فافعلي ما تشائين، ولكن لا تدهشي إذا ما تغير رأيك بعد سنوات».

وضعت ليوني السكين من يدها وقالت متهكمة: «كما فعلت أنت؟ أظنك ندمت على تركك المدرسة في السادسة عشرة من عمرك؟».

طرفت عينا جسيكا وقالت: «لكنني لم أفعل».

ـ لم تفعلي ماذا؟

ـ لم أترك المدرسة في السادسة عشرة.

فحدقت ليوني إليها: «بل فعلت. وحسب قول المحامي لأبي، تنقلت بين عشر وظائف قبل أن تعملي في السوبر ماركت».

ارتجفت جسيكا: «ومع هذا، أنا واثقة... أنا أعلم... أنا لم أترك المدرسة في السادسة عشرة».

وبللت شفتيها اللتين جفتا فجأة: «أظن.. أظنني ذهبت إلى الكلية».

وابتلعت ريقها: «أتظنين هذا ممكناً؟».

بدا الانزعاج الآن على ليوني. وتمتمت بارتباك: «ربما عليك أن تسألي أبي، فقد يعلم».

كانت جسيكا ترتجف بوضوح تام. ولم تعرف ليوني ما عليها أن تفعل، ولكن يبدو أنها قررت أن تقوم بشيء ما، وقبل أن تتمكن جسيكا من منعها، نهضت وأسرعت إلى الباب.

ـ سيدة هايز... سيدة هايز.

أخذت تنادي وهي تنظر إلى جسيكا بحذر، وعندما لبت مدبرة المنزل النداء، أشارت إلى جسيكا قائلة: «هي... هي تظن أنها تذكرت شيئاً. شيئاً عن ذهابها إلى الكلية. آه! ليت أبي هنا».

قالت مدبرة المنزل وقد أدركت الوضع من أول نظرة: «أنت بحاجة إلى ما يرد اللون إلى وجهك، يا فتاتي».

وأمسكت أصابع جسيكا بذعر.

ـ أنت كالثلج آه، تعالي معي. ڤيكي، ماذا تفعلين؟ ضعي شيئاً من الشراب في كوب الآنسة دڤلين وأعطيها إياه، خذي يا فتاتي. ارشفيه شيئاً فشيئاً.

وعندما رأت جسيكا مدبرة المنزل والفتاتين يحطن بها، لم تجد مناصاً من أن تمتثل لطلب مدبرة المنزل وسرعان ما شعرت بتحسن بالغ عندما أدفأ الشراب الساخن جوفها.

ـ شكراً.

وتنفست الصعداء.

ـ آسفة لفقدي توازني بهذا الشكل. إنه... إنه نتيجة شيء قالته ليوني فأطلق شرارة الذكرى، لكنني، في الواقع، غير واثقة.

فقالت مدبرة المنزل في الحال تخاطب ليوني.

ـ ما الذي كنت تقولينه يا ليوني؟

سارعت جسيكا تشرح الأمر: «إنه ليس ذنب ليوني. كنا... كنا نتحدث عن المدارس... ويبدو أنني تذكرت أنني ذهبت إلى الكلية...».

وسكتت فجأة عندما شعرت بطعنة ألم في صدغها.

www.elromancia.com

- ولكن... ولكن ربما هذا مجرد شيء سمعته. ربما من تلك الفتاة في القطار. فقد قيل إنها كانت خريجة إحدى الجامعات أليس كذلك؟

فقالت مدبرة المنزل بارتياب كما سبق لليوني من قبل: «ربما».

ولكن بعد أن تبادلت نظرة مع ليوني، تحوّل ذهنها فجأة، فهتفت: «ليوني لماذا لا ترتدين ثوبك المدرسي؟!».

فقالت جسيكا. وقد أدركت أن الذنب ذنبها في تحويل الانتباه إلى مظهر الفتاة: «ليوني ليست ذاهبة إلى المدرسة اليوم. أنا... إننا سنذهب معاً للتسوّق. لم يشأ السيد بتلي أن يدعني أذهب وحدي».

نظرة ليوني الشاكرة كانت تستحق الخداع الذي قامت به، وقالت السيدة هايز: «أحقاً؟».

وأدركت جسيكا أنها لم تقتنع تماماً.

- حسناً لم يخبرني السيد بتلي بذلك.

فقالت جسيكا على الفور: «لقد تحدثنا عن ذلك هذا الصباح فقط».

وشعرت بالضيق لاضطرارها إلى اختراع كذبات لا تنتهي لتغطي أول كذبة. وتابعت تقول: «ربما نسي، في سرعته للذهاب، وأنا واثقة من أنه كان سيخبرك حتماً».

وبدا الارتياب على مدبرة المنزل: «هم... لا أدري إذا كانت صحتك تسمح لك بالخروج... للتسوّق».

وصدرت الكلمة الأخيرة من فمها أشبه بحكم بالإدانة.

- ليوني، هل هذا ما قاله أبوك؟

انتصبت ليوني في وقفتها: «كأنك بذلك تتهمين الآنسة دقلين بالكذب!».

- لا. أنا طبعاً لا أتهم الآنسة دقلين بالكذب.

كانت مدبرة المنزل في جانب الدفاع الآن. وشعرت جسيكا بالرثاء لها. لكن الوقت كان قد فات لسحب كلامها.

وعندما أصبحتا وحدهما مرة أخرى، قالت ليوني: «شكراً. أنا اقدّر لك ما فعلته الآن، خصوصاً وأنت غير راضية عن عملي».

كان الألم في صدغ جسيكا قد تبدد أخيراً، فاستطاعت أن تبتسم بضعف: «ربما لدي دافع خفي لذلك».

ورأت النظرة الحذرة التي بدت في عيني ليوني لكلماتها هذه، فتابعت تقول: «لقد كنت أعني ذلك فعلاً. فأنا أحب أن اذهب إلى التسوّق».

فقالت ليوني بذعر: «التسوّق؟ أتعنين ذلك معاً؟».

- ولماذا لا؟

قالت ليوني مقطبة: «أنا أكره التسوّق».

- لماذا؟

فقوّست ليوني كتفيها: «حسناً... الثياب الأخرى إنما صنعت لأجل نساء مثل لورا وليس لأجلي».

- لماذا ليس لأجلك؟

فقالت الفتاة باكتئاب: «لماذا ليس لأجلي؟ أليس هذا واضحاً؟».

- ليس واضحاً لي.

- أنا لا أهتم إلا بهذا النوع من الثياب.

وأشارت إلى ملابسها الرثة السيئة المظهر.

- ليس لديّ القوام المناسب للملابس الحديثة الطراز.

قالت جسيكا وهي تتأمل الفتاة بعين نافذة.

- أنا لا أوافقك على قولك هذا. أنت طويلة ونحيفة ويبدو مظهرك هذا حسناً في الملابس التي ترتديها الفتيات المراهقات.

فقالت ليوني واجمة: «حسناً، هذا لا يبدو لي أنا. سأبدو بلهاء غير أنيقة. لورا تظن أنني عمود».

فصُعقت جسيكا: «هل قالت لك ذلك بنفسها؟».

فقوست ليوني كتفيها: «نعم. قالت (عمود تتسلق عليه النباتات). هذه كلماتها بالضبط. ولكن هذا لا يهمني. أنا لا يهمني سوى الخيول».

هزت جسيكا رأسها: «فهمت».

فهتفت ليوني بضيق: «لا تأسفي علي، إنها طريقة لورا فقط. فهي تغضب

أحياناً بجنون من أبي إذا لم يفعل ما تريد. ثم تنفّس عن غضبها بتوبيخي أنا. إنها تلومني لأنني موضوع نزاع بينهما. لولا وجودي هنا، لأمكنها أن تقيم في أسبن متى أرادت. بينما عليها الآن أن تنتظر إلى أن تتمكن من إقناع أبي بأن يقيم في بيتها بيكرسلي».

- أنعنين...

- هذا صحيح. لأن أبي لن يقيم معها علاقة خارج إطار الزواج..

قالت ليوني هذا بلهجة تقرير واقع، دون أن تنتبه إلى القنبلة التي فجرّتها لتوها. وتابعت تقول: «ما دامت لورا هي المسيطرة على المنزل «بيكرسلي» فلن تتخلى عنه».

ابتلعت جسيكا ريقها، ثم تمتمت بصوت خافت: «بيكرسلي، إنه منزل أبي، أليس كذلك؟».

قالت ليوني بأسف: «لكنه لم يعد كذلك».

أومأت جسيكا برأسها شاعرة بالارتياح لأن ليوني لم تلحظ ارتباكها، وقالت: «نعم. لم يعد كذلك».

فعبست ليوني: «ومع ذلك، عندما تستعيدين ذاكرتك، فقد تقررين العيش هناك، أنت أيضاً. وبإمكان هذا أن يغيّر الكثير».

فهتفت جسيكا: «وما الذي يجعلك تتصورين بأن من الممكن أن أعيش في بيت لورا بتتلي؟».

- لأنه ليس بيتها.

ردت عليها ليوني على الفور، ثم تحول وجهها الشاحب إلى لون قرمزي وأضافت بارتباك: «أعني... متى تريدين أن تذهبي؟».

- أذهب؟

وبدا التشوّش على جسيكا فأسرعت الفتاة توضح: «أعني... إلى «ليدز»... هاروغيت... هاروغيت ستكون أفضل. أنت لم تذهبي قط إلى هناك، أليس كذلك؟».

- ليوني...

وتخلت الفتاة عن كل المحاولات لتتجنب ما لا مناص منه، ثم تأوهت قائلة: «أرجوك، أنت لن تخبري أبي بما قلته، أليس كذلك؟ لماذا فتحت فمي؟ سيقتلني».

سألتها جسيكا بنعومة: «هل لأنك أخبرتني بأن المنزل بيكرسلي ليس للورا؟ لا أستطيع أن أصدق هذا».

- بل سيفعل.

ونهضت ليوني واقفة ثم أخذت تسير في الغرفة بشكل بائس.

- رباه، أنا أرتكب دوماً أخطاء.

فهزت جسيكا كتفيها: «لكنك لم ترتكبي خطأ. هذا على الأقل، ما أظنه. والواقع أن هذا الأمر لا يهمني... أوه!».

وكلمح البصر، أدركت فجأة معنى ما كشفت عنه ليوني بعدم اكتراث. فإن لم يكن بيكرسلي ملكاً للورا، فلمن هو إذن؟

جاءت ليوني ووقفت أمامها، راكعة على ركبة واحدة حتى اصبح وجهها بموازاة وجه جسيكا: «اسمعي، عليك أن تعديني بأنك لن تخبري أبي بما قلته أنا.. يكفي ما سيحدث لي من إزعاج عندما تخبره السيدة هايز بأنني غبت يوماً عن المدرسة».

شعرت جسيكا بعودة عدم توازنها السابق، لكنها تمكنت من السيطرة عليه وهي تقول بلطف: «لا بأس.. لا بأس يا ليوني. لن أخبر أباك بما قلته، وذلك بشرط واحد».

فقالت ليوني عابسة: «وما هو؟».

- هو أن تخبريني بكل ما تعرفين عن وصية أبي.

فشهقت ليوني: «لا».

- آه، حسناً، إذن...

انفجرت ليوني بلهفة: «ما كان لك أن تسأليني أنا... لماذا لا تسألين أبي ليخبرك؟ سيفعل إذا أنت ألححت عليه. وعلى كل حال، لديك الحق في أن تعرفي».

فضاقت عينا جسيكا: «أحقاً؟ هل أفهم من هذا إذن أن... إرثي من أبي ليس مجرد دفعة سنوية تتأمن بها حياتي؟».

أحنت ليوني رأسها: «لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك».

قالت هذا بإصرار، لكنها لم تكن بحاجة إلى ذلك. فقد فهمت جسيكا... أو على الأقل، ظنت أنها فهمت. هذا إذن هو السبب في أن جايمس بتلي وافق على إحضارها إلى «أسبن»؟ لكي يجنب لورا الإحراج من أن تسلم المنزل إلى ابنة زوجها غير الشرعية.

ـ لا بأس.

ـ علينا التوجه إلى هاروغيت الآن. لذا علينا أن نستعد، أليس كذلك؟ هل لديك فكرة عن كيفية ذهابنا إلى هناك؟

ـ سيأخذنا أحد الولدين، وربما السيد هايز... جسيكا...

ـ لا بأس. فقد أخبرتك بأنني لن أقول شيئاً لأبيك.

وزمّت جسيكا شفتيها معاً: «لن أقول على الأقل ما يورطك».

قالت ذلك بلهجة ذات معنى.

* * *

بالرغم من البداية المشؤومة لهذا النهار، إلا أن خروجها إلى هاروغيت، أثبت بعض النجاح، فقد أقنعت ليوني بدخول متجر يبيع ثياب المراهقات، ولم تكن الفتاة متحمسة لتجربة أي من الأثواب الجميلة. ولكن، مع شيء من تشجيع جسكا، وشيء من الابتزاز... وافقت على شراء طقمين من القطن وثوب تنورته قصيرة.

كان التحوّل مذهلاً فقد بدت ليوني بالطقمين أقل نحافة بإنشات، وبدت ساقاها أقل نحافة، حتى أن الثوب ذا الثنيات الذي ينتهي فوق ركبتيها مباشرة، منحها مظهر الثقة بالنفس، ومنح قماشه الحريري المشجر باللون البرتقالي وجهها الشاحب بعض اللون.

كان السرور والدهشة ظاهرين على وجه ليوني، وتساءلت جسيكا متى أزعج جايمس نفسه باصطحاب ابنته إلى السوق. ومن هو الذي اختار لها تلك

البنطلونات المتهالكة والثياب المدرسية؟ هل السيدة هايز؟ أم لورا؟ وهل من الممكن التصور أن لورا قد استعملت هذه الطريقة لتدمّر ثقة الفتاة بنفسها؟

وعندما أخذت جسيكا تعد النقود في حقيبة يدها، لترى بالضبط كم يمكنها أن تدفع، فاجأتها الفتاة الصغيرة بالقول: «سأضع النقود في حساب أبي».

قالت هذا مذكرة جسيكا بأنها، رغم مظهرها، ابنة رجل غني.

ـ صدقيني. سيسره أن أحصل على ملابس مختلفة. كان يطلب دوماً مني أن اقتني ملابس، ولكن... حسناً، لم اكن مهتمة بذلك قبل الآن.

قطبت جسيكا حاجبيها: «لماذا؟».

أجابت ليوني عابسة: «أظنني كنت أعتبر نفسي غير ماهرة في الاختيار».

ورغم أن ليوني قالت هذا بلهجة عفوية مرتجلة، إلا أن جسيكا أدركت أن هذا التعبير ليس منها هي. وهتفت ليوني، متلهفة لأن تشاركها جسيكا فرحتها: «على كل حال، يجب أن تشتري شيئاً لنفسك، أنت أيضاً. ما رأيك في ثوب، أو طقم؟ أرجوك... أحب أن اشتري هدية لك... من باب الشكر فقط. أليس هنا شيء يعجبك؟».

فزت جسيكا رأسها، قائلة بحزم: «إذا أنا اشتريت شيئاً، فسأشتريه بنفسي».

وإذ رأت الإكتئاب الذي كسا وجه الفتاة فجأة، أضافت بسرعة: «لا أظن أن من المفروض أن يشتري لي أبوك ملابسي. ولكن شكراً لك لعرضك عليّ هذا. وأنا أقدّر لك ذلك جداً».

ترددت ليوني قبل أن تدع التوتر يزول عن ملامحها، وقالت: «لا بأس، ربما معك حق».

وعادت تعبس.

ـ لا بد أنك بحاجة إلى شيء ما، أي نوع من الملابس تفضلين؟ أم أنك لا تتذكرين؟

ـ في الواقع، هذا شيء يزعجني قليلاً.

قالت جسيكا هذا معترفة، وقد وجدت فجأة أن من الأسهل عليها أن تتحدث عن هذا إلى ليوني، أكثر من أي شخص آخر.

ـ الملابس التي في حقيبتي والفراء الذي كنت متشبثة به عند الاصطدام.. حسناً.. لا تعجبني فلا أشعر أن هذا النوع هو ذوقي باختيار الملابس.

تمتمت ليوني بارتباك: «من الممكن أنك عندما... حسناً، عندما علمت أنك ورثت بعض المال، اندفعت إلى الإنفاق».

ـ نعم. حسناً. كل شيء سينكشف في الوقت المناسب.

فعادت ليوني تلحّ عليها: «لماذا إذن لا تشترين شيئاً تحبينه حقاً؟ وإذا احتجت إلى أن تستديني...».

ـ آه، لا. لا أحتاج إلى ذلك.

قالت جسيكا هذا بسرعة وهي تحسب في عقلها كم لديها من النقود في محفظتها.

ـ ما أريده حقاً هو بنطلون جينز، وربما بعض البلوزات القطنية.

وعبست: «لدي ما يكفي من أثواب رسمية غالية. ما أريده هو ملابس أستطيع أن أتنفس فيها».

* * *

لم تستطع جسيكا أن تحصل على فرصة تتحدث فيها إلى جايمس بتلي إلا في مساء اليوم التالي.

لأول مرة دعتها ليوني لتنضم إليها بعد المدرسة، فرحلة التسوق إلى هاروغيت أذابت الجليد بينهما. وسرّت كل من الفتاتين للعثور على من تفضي إليها بمكنونات نفسها، كانت ليوني فتاة مرهفة الحس وكان واضحاً أنها كرهت تدخل ابنة عم لها لا تعرفها في حياتها. لكن دفاعاتها الآن قد انهارت، وكانت جسيكا سعيدة بذلك.

جاء «بات غريدي» عامل المزرعة عندما كانتا متكئتين على السور، تتفرجان على الأمهار في المرعى. اتكأ بجانب جسيكا بمرفقيه بإلفة، وقال مظهراً إعجابه بمظهرها الجديد، في البنطلون الجينز والقميص القطني اللذين

اشترتهما في اليوم السابق.

ـ حسناً، حسناً. تبدين بأحسن حال، يا آنسة دقلين.

ـ شكراً.

لم يتملك الارتباك جسيكا. فقد كانت تدرك، بشكل ما، أنها كانت تتعامل مع فتيان مثل بات غريدي طوال حياتها. وتابعت قائلة: «أشعر فعلاً بتحسن».

قالت ليوني بحماسة: «كنا ننظر معجبات بالفرس «منسترال» ووليدها، أتظنه سيصبح متفوقاً في السباق؟».

ـ السيد بتلي يظن ذلك.

قال بات هذا وهو يحوّل نظراته مكرهاً إلى الحيوان.

ـ إن كاهله قوي. وطريقة حركاته جيدة كما ترين.

قالت ليوني عابسة: «حسناً. أراه رائع الجمال».

تركت جسيكا وليوني السور عائدتين، وتبعهما بات غريدي الذي عنَّ له أن يسأل جسيكا وهو يضع يديه في جيبي بنطلونه.

ـ أما زلت تفكرين في ركوب حصان؟ إن لدينا فرساً مناسبة لك. من المؤكد أنها لن تخيفك.

فهتفت ليوني على الفور، وقد نسيت اعتراض أبيها السابق على تعلّم جسيكا الركوب: «آه! نعم. هذا صحيح، إذا كان بإمكانك الركوب، يا جسيكا، فتعالي معي حين أخرج لتدريب بيكا. إنها متعة بالغة صدقيني».

ترددت جسيكا: «حسناً...».

ولكن قبل أن تجيب قال بات غريدي.

ـ قد لا تكون الآنسة دقلين قوية بما يكفي.

وسكت، ولكنها لم تدرك، أنه، بقوله هذا إنما كان يستفزها للقبول.

قالت ليوني وقد تملكتها الحماسة.

ـ حسناً إذن. هل نجرب؟

ـ آه... لا أدري...

www.elromancia.com

ونظرت جسيكا إلى بات متوسلة. لكنها، كما توقعت، لم تجد منه نصيراً من هذه الناحية إذ قال: «سأسرج الحيوان لك، ثم نرى».

بعد ذلك بربع ساعة، تساءلت جسيكا عما جعلها تخاف من امتطاء الفرس «المختارة». كانت فرساً وديعة وسهلة القياد، ورغم أن جسيكا كانت واثقة تماماً من أنها لم تركب الخيل قط من قبل، وجدت نفسها متجاوبة بشكل طبيعي مع الفرس. الأمر الذي جعل ركوبها ممتعاً للغاية.

ـ أتريدين أن تجربي الركوب دون لجام، فتسير بك الفرس بحرية؟

سألها بات هذا وهو يمسك باللجام.

ترددت جسيكا: «أتظن أن عليّ أن أفعل ذلك؟».

ـ لا أظن!

أعلن هذا صوت قوي مألوف لكنه عدواني، والدهشة التي تملكت جسيكا لهذا التدخل المفاجيء كادت تفقدها توازنها على الفرس. لكنها استطاعت أن تثبت مكانها، رغم الدم الذي لوّن وجهها.

ـ آه، مرحباً يا أبي.

هتفت ليوني بذلك وقد بان عليها نفس الشعور بالذنب الذي غمر وجه جسيكا: «لم نتوقع أن تعود مبكراً هكذا».

وإذ أدركت ما كانت تقول، لاذت بصمت مرتبك.

ـ هذا واضح.

قال أبوها ذلك وهو ينظر إلى المشهد أمامه بضيق. وتحولت عيناه ببرودة الثلج إلى «بات غريدي».

ـ سبق أن قلت لك إنني أنا من سأقوم بتعليم الآنسة دڤلين الركوب إذا رغبت في ذلك.

اضطربت ملامح بات، وهو الواثق بنفسه عادة، وقال: «بكل تأكيد، ولكن لو لم تعرض الآنسة ليوني فكرة تعليم الآنسة دڤلين الركوب، لما اقترحت ذلك».

قال بات هذا متجاهلاً نظرة السخط التي ألقتها عليه الفتاة.

أخذت جسيكا تشعر بأن وجودها قد أصبح موضع عدم اكتراث. فاختارت أن تتدخل بنفسها: «في الحقيقة تلك كانت فكرتي».

قالت هذا متمنية لو أنها ماهرة في النزول عن الفرس كما توهمت بركوبها، وإذ لم تشأ أن تظهر نفسها حمقاء أمام جايمس، بقيت حيث هي، مواجهة نظراته غير المصدقة بعزم مركّز.

ـ ظننت... آه، ظننت أن نزهة مع ليوني على ظهور الخيل ستكون ممتعة. أعني، الجميع هنا يركب الخيل، أليس كذلك؟ وهكذا شعرت بنفسي مختلفة عن الجميع.

لم تطرف عينا جايمس وهو يقول ببرودة: «أحقاً؟ ومنذ متى وأنت تشعرين بهذا النقص؟».

هزت كتفيها: «ليس من وقت طويل».

فقال بجفاء: «يمكنني تصديق ذلك. لأنك لم يسبق لك أن اعترفت بهذا الاهتمام لي».

تنقلت ليوني بضيق من قدم لأخرى قائلة له: «آه، يا أبي. هل فكرة من تكون هذه، هي مهمة حقاً؟».

وأرغمت نفسها على الابتسام.

ـ على كل حال، كانت جسيكا جيدة جداً في الركوب. وأظنك ستسرّ حقاً. كما أن الفرس هادئة وديعة للغاية.

ـ وأنت كذلك.

قال جايمس هذا وهو يتقدم نحو جسيكا، ثم أضاف: «في المستقبل، أكون شاكراً لو انتظرت حتى اكون هنا قبل أن تجازفي في إصابة نفسك بعجز دائم. هل فكرت بما سيحدث لك، لو وقعت عن ظهر الحصان؟».

ـ آه! صدقني، أنا لست طفلة.

هتفت جسيكا بذلك بشيء من الارتباك.

ورد عليها عابساً: «كفّي إذن عن التصرف كطفلة. لا يمكنني أن أتركك خمس دقائق دون أن تقومي بشيء أنت تعلمين أنه لا يرضيني، مثل تلك الرحلة

www.elromancia.com

إلى هاروغيت أمس مثلاً، هل أنت التي منحت ليوني إذناً بأن تأخذ إجازة يوم من المدرسة؟».

ـ نعم... لا... أنا.. ربما.

أنهت جسيكا كلامها بعجز. لقد أصبح الوضع بأجمعه مربكاً لها للغاية خاصة وهي تشعر بعيون ليوني وبات، تحدق فيها بخوف وترقب.

يبدو أن مزاج جايمس حالياً لم يكن يميل إلى التهدئة. وإذ رفعت بصرها إلى وجهه المظلم الحاقد تقريباً، عجبت كيف يبدو على ملامحه، المنضبطة عادة، مثل هذا الهياج والإضطراب.

كان واضحاً أنه جاء مباشرة ليبحث عنها. إذ بدلاً من البنطلون والكنزة البسيطة اللذين يلبسهما في الإصطبلات، كان في منتهى الأناقة في بنطلون أسود رائع التفصيل وسترة من التويد الفاخر، وربطة عنق. شعورها برجولته العدائية الفياضة جعل إحساسها نحوه شيئاً لا يُغتفر، كيف يمكنها أن تشعر بهذا الشكل؟ تملكها العجب، بينما ليوني تنظر إليهما بشيء من الاضطراب. كان ذلك سخيفاً مخزياً، وإذ أدركت أن الطريقة الوحيدة لإنهاء ذلك، هي الإذعان له، ابتسمت له متوترة: «شكراً لاهتمامك بصحتي، ولكن، كما ترى لم يحدث أي ضرر. والآن، إذا سمحت، أريد أن استحم قليلاً».

ظنت أن ذلك سينهي الأمر. ولكن ليوني ألقت نظرة أسف على جيسكا، واستدارت عائدة إلى الإصطبلات، متلهفة دون شك إلى أخذ حصانها «بيكا» إلى نزهته التي تأخرت جداً. ولكن رغم أن جايمس سمح لابنته بأن تهرب من حنقه، إلا أنه لم يرجىء أمر جسيكا، فقد تبعها على الأثر، وأوصلها إلى المنزل.

قررت أن فرصتها الوحيدة للسيطرة على الوضع هي الهجوم عليه، ألقت ناحيته نظرة متمردة وهي تقول بلهجة غير مهذبة:

ـ هل أمضت السيدة بتلي يوماً ممتعاً في حلبة سباق الخيل؟

ـ السيدة بتلي؟

وبدت عليه الحيرة لحظة، ثم ما لبث بعدها أن أدرك، كما يبدو، ما تعنيه، فنظر إليها ساخراً وقال: «آسف أن أخيّبك. لكن السيدة بتلي لم ترافقني إلى

السباق. لورا غير مغرمة بالخيول، أما بالنسبة إلى تمضية النهار بطوله مع الخيل، حسناً، فلا أظن أن هذا ما تفضله».

ـ حتى برفقتك؟

قالت له ذلك بشيء من الاستفزاز فأظلمت ملامحه.

ـ حتى برفقتي. ويسرني أن تمتنعي عن الحديث عن زوجة أبيك الراحل وعني مع ليوني.

فقالت بحيرة: «ماذا تعني؟».

لوى شفتيه: «آه! من فضلك، لا تدعينا نتورّط في جدل لا جدوى منه. نحن الاثنان، نعلم بشعور ليوني نحو لورا، أليس كذلك؟ ومن الواضح أنك تشجعينها على أن تكون قليلة الأدب».

ـ حسناً، أنا لم أفعل ذلك، ورأي ليوني بلورا هو خاص بها، كما أن رأيي خاص بي.

فتنهد جايمس: «لا بأس، لكنني أريدك أن تعلمي أن إثارة المشاكل مع لورا لن تساعد وضعك على الإطلاق».

كانا قد اقتربا من المنزل الآن. وسألته متهكمة: «وضعي؟ نعم، أحب أن نتكلم عن وضعي».

كانت خطواتها قد تباطأت عندما اقتربا من الشرفة الأرضية، فالتفتت وكأنها تتأمل المنظر، تكهنت بأن جايمس كان سيفضل إرجاء هذا الحديث إلى ما بعد. ولأنه لم يستطع أن يتركها دون اهتمام، اضطر إلى أن يلتفت ويسألها متوتراً: «هل المفروض أن أفهم شيئاً من قولك هذا؟».

فقالت تمنح نفسها الوقت لاختيار كلماتها: «حسناً، ربما عليك أن تخبرني ما هو وضعي».

ـ أنت نفسك قد علمت شيئاً وثيق الصلة بوضعك. هل لك أن تخبريني عما تتحدثين عنه؟

فتنهدت... لم تكن تستطيع أن تقول ما عرفته دون أن تورط ليوني، وقد وعدتها بألا تفعل هذا. وأخيراً قالت: «اسمع، أنا لست حمقاء، مهما كان

اعتقادك. ثم، حسناً، كان لدي وقت للتفكير».

فقال ساخراً: «أثناء ركوبك الحصان دون شك».

احمر وجهها وقالت بتوتر: «لا. ليس أثناء ركوبي.. كان ذلك صباح هذا اليوم في الواقع. كنت فقط... حسناً، بدأت أتساءل لماذا كان عليّ أن أحضر إلى بيكرسلي بينما من الواضح، أنني غير مقبولة فيه... ربما.. ربما هناك سبب أكثر أهمية لتلك الرحلة».

استطاعت أن تدرك من تجهم وجهه أن كلمات ليوني اللامبالية كان لها ما يبررها. ولكن ما هو الدافع الذي جعله يحضرها إلى هنا؟ لا بد أن لذلك علاقة بلورا، وإذا كان المنزل بيكرسلي ليس ملكاً للورا، فهل هو ملك لها هي؟ وتابعت كلامها وقد ازدادت توتراً.

ـ يبدو واضحاً، نوعاً ما، أن لورا لم تدعني إلى هنا. ولهذا لا بد أن هناك شيئاً آخر. وهو شيء تعرفه أنت ولا أعرفه أنا.

فقال بفتور: «استمري، وبعد؟».

ـ وبعد، هذا الإرث المفروض أن يكون أبي قد تركه لي، ما الذي يتضمنه بالضبط؟.

فكر لحظة قبل أن يقول بهدوء: «ربما تتذكرين، عندما غادرت المستشفى، أن الطبيب طلب أن لا تنفعلي بأية صورة. لقد حذرني بشكل خاص من أن عليك ألا تشتركي بحديث من هذا النوع. وبما أنك تشعرين بالتحسن، عليك أن تأخذي موعداً ترين فيه محامي أبيك في ليدز. وأنا واثق من أنه سيكون أكثر استعداداً لكي يعطيك كل تفاصيل وصية أبيك».

ـ وأنت لن تفعل؟

ـ لا.

كان عنيداً من هذه الناحية، وأدركت جسيكا أن كل نيته هي حماية لورا. تنفست بعمق، ثم قالت مرتجفة:

ـ إذن ربما تتلطف وتحدّد لي موعداً.

وبشكل ما، شعرت بأن ليس من طبيعتها أن تنهي الأمور بهذا الشكل،

وقال جايمس: «حسناً جداً».

قبل جايمس إرشاداتها من دون تعقيب، وهمّ بالابتعاد عنها لولا أن دافعاً من اليأس لم تستطع السيطرة عليه جعلها، تقول له بتعاسة: «جايمس. أنت تفهم شعوري، أليس كذلك؟».

وهزت رأسها، وشعرها الحريري يحيط بوجهها.

ـ عليّ أن أقوم بشيء ما. لا يمكنني الاستمرار في قبول ضيافتك إلى ما لا نهاية، وربما هذا سيساعدني على أن أتذكر البقية.

تجاوب جايمس مع ضراعتها بوقوفه مكانه. لكن ملامحه لم تكن أقل ابتعاداً وهو يقابل نظراتها الصريحة، بقوله: «أنا آسف، لم أدرك أنك تعيسة هنا. ولكن من الطبيعي أن ترغبي في معرفة الحقائق وسأذهب إلى توبي لانغلي في الصباح».

نظرت إليه مستفهمة: «توبي لانغلي؟».

قال دون حرارة: «إنه محامي أبيك الراحل. وقد يتمكن من رؤيتك غداً. وسأطلب منه أن يحدّد لك موعداً عاجلاً».

ـ حسناً، لا لزوم للعجلة.

قالت هذا وقد تملكها الارتباك.

رفع حاجبيه: «لا عجلة في الأمر؟ عفواً، ولكن لدي انطباع بأنك كنت متلهفة لمتابعة العمل».

انقباض عضلات وجهه نبّه جسيكا إلى مدى توتره. ولكن، مرة أخرى، حين همّ بدخول المنزل، قالت تسأله: «هل.. هل أمضيت نهاراً طيباً؟».

سألته ذلك راجية أن تتمكن من استعادة علاقتهما. لكن جايمس لم يكن متجاوباً. وقال بلهجة لاذعة: «كان يوماً ساراً، حتى هذا الحين».

وقبل أن يمنحها فرصة أخرى تجرب فيها صبره، دخل المنزل.

* * *

٩ ـ ذات مساء

أوقف جايمس سيارته الرانج روفر بجانب البيت، كان محظوظاً إذ وصل إلى البيت بسلام وشعر بالندم لأنه تصرف بتهور تام. ولكن بعد الأمسية التي قضاها مع لورا كان لا بدّ أن تثور أعصابه غضباً. كان يعلم، قبل أن يترك بيته، أنها لن تكون أمسية ممتعة. ولكن كان عليه أن يخبرها بما قالته جسيكا. لم يكن أمامه غير ذلك فهي ستغضب للغاية.

ومع ذلك، لم يكن غضبها وحده هو الذي جعله يشعر بكل هذا الضيق فهو لم يكن، في هذه الليلة، صبوراً مع لورا. الموقف بأجمعه كان سخيفاً للغاية. لا يمكن أن يعلّل كل مشاعر الإحباط التي خلفها سلوك لورا، لكن الحقيقة هي، أن لورا عندما بدأت تلومه هو، وآدم، وجسيكا دقيلين، والقدر عموماً، للاجتماع على تدميرها شخصياً لم يشعر من جانبه بسوى الضيق. لقد كبح جماح نفسه كيلا ينحاز إلى جانب جسيكا. وبعد، فقد أثبتت أنها الطرف البريء في كل هذا.

كان جايمس يعلم أنّ عليه أن يشعر بالتعاطف مع لورا. وعلى كل حال، فإن معرفته بها هي أطول كثيراً من معرفته بجسيكا. وكان ينوي الزواج بها عندما يكون الوقت مناسباً.

لكن ذلك كان قبل أن تدخل جسيكا دقلين حياته.. كان الأمر غريباً، لكن قدومها غيّر أشياء كثيرة. منذ سنوات وليوني تحاول أن تريه مدى أنانية لورا، لكنه لم يصدّق صحة ذلك إلا حديثاً، نعم، كان يعرف لورا وأخطاءها.

ولكن لورا التي يراها الآن لم تعجبه قط. وكان هذا الذي ساهم في تكدير مزاجه أكثر من أي شيء آخر. لم يعجبه الأمر. لم يعجبه شعوره بأنه عاش العشرين سنة الماضية مع صورة وهمية. ولكن ما زاد في ألمه هو إصرار جسيكا دقلين على أن تفتح عينيه.

كانت النتيجة أنه، بعد أن أمضى أكثر من ساعة يستمع إلى لورا، رفض أن يجلس أكثر واراد أن يلتمس التعزية في مكان آخر. كان يدرك أنه أخذ، مؤخراً، يكثر من ذلك. فمنذ جاءت جسيكا لتقيم في أسبن، وهو يشعر بصعوبة متزايدة في إزاحتها من ذهنه.

دهش، عندما دخل الردهة ورأى أن ثمة نوراً في المنزل. كان الأمل يحدوه في أن تكون الأنوار مضاءة لحظاً من السيدة هايز.

لكنه ذهل عندما وجد جسيكا تخرج من باب غرفة الجلوس حالما دار المفتاح في القفل، ورآها طويلة نحيفة، بادية الضعف، ترتدي البنطلون الجينز الملتصق بجسدها، ولم تكن قد خلعته طول النهار. ووضعت سترة صوفية فوق القميص لتقيها من هواء الليل البارد، كانت تبدو مختلفة جداً عن تلك الفتاة البالغة الشحوب التي رآها لأول مرة في المستشفى.. شعرها الآن لامع وكثيف معافى. كما أن عينيها لامعتان يقظتان.

حاول جايمس أن يتجاوزها مستمراً في طريقه. بعد هذا المساء الذي مرّ عليه، لم يكن في حالة تسمح له بالحديث مع أحد. لكنه لم يستطع أن يتجاهلها كما أن الفضول كان يتملكه لمعرفة السبب الذي جعلها تنتظره.

أغلق الباب خلفه. وقال بلهجة فظة: «حسناً، حسناً، لقد مضى وقت طويل منذ كنت أجد من ينتظرني. ما الذي يجول في ذهنك الآن؟».

دست جسيكا أصابعها الطويلة في جيب بنطلونها الجينز الخلفي. لم يستطع أن يتذكر أنه رآها في بنطلون جينز قبل اليوم، وكما يذكر، كل ملابسها كانت تبدو واسعة بعض الشيء عليها، وليس منها ما كان يظهر تفاصيل جسدها كالبنطلون الجينز الضيق. وفي الواقع، لم يكن لاحظ مبلغ ما أصبحت عليه من

جاذبية. وسبّب له هذا التفكير شيئاً من الضيق تبدّد تقريباً عندما أخذت جسيكا تتكلم:

- أنا... أردت أن أتحدث إليك. كنت أعلم أن الوقت متأخر وأنك ربما لا تريد التحدث إليّ، لكنني لم استطع الانتظار حتى الغد، وخصوصاً بعد أن أصبحت فرص التحدث إليك نادرة، في المدة الأخيرة.

- هل هذا انتقاد؟

واجهها بذلك، فترددت جسيكا، ثم قالت: «لا. أنا.... اسمع، ألا تجلس؟ لن أؤخرك. الأمر مهم».

- أنا بأحسن حال واقفاً، وشخصياً أفضل الحديث معك صباحاً. إذا كان هذا لا يضايقك كثيراً، فأنا متعب.

فقالت بفتور وهي تتنفس بعمق وتنظر خلفها: «هل تحبّ أن أحضر لك فنجان قهوة؟».

فقال بخشونة وهو يحل ربطة عنقه: «لا أريد قهوة. إنه لطف كبير منك، ولكن ليس لديّ مزاج لا لعطفك ولا لتعليقاتك الشخصية».

فقالت ساخطة: «وهل هي جريمة أن أدلي ببعض التعليقات البريئة؟ وهل ترى كانت السيدة بتلي غاضبة لأنني ابتدأت بإلقاء أسئلة».

فردّ بخشونة: «فلندع لورا وشأنها. أرى أن تقولي ما تريدينه وتنهي الأمر».

كان إرباكها سهلاً. قالت وهي تتراجع نحو غرفة الجلوس، في ما كان هو يلحق بها كيلا يوقظ ليوني بصوته المرتفع: «حسناً، كنت أفكر».

وتنهدت: «لا بد أنك تعرف أنني سأفكر في... في السيدة بتلي».

فهتف يقول: «آه، ليس مرة أخرى».

- أريد فقط أن أقول إنه إذا... إذا كان أبي قد ترك لي حصة في منزله، فليس لها أن تقلق إذن لأنني لن أرغب في الإقامة فيه.

كانت هذه الفكرة التي وصلت جسيكا إليها وحدها، محيّرة تماماً. فقد أمضى المساء محاولاً أن يقنع لورا بأن ترضى بالتطورات الأخيرة. وها هي

جسيكا تقرر ما كانت لورا متلهفة إلى إنجازه، ولكن جسيكا على ما يبدو تظن أن لورا تملك قسماً من بيكرسلي. والواقع، أنه بكليته لها. ولكن ما سيكون عليه شعورها عندما تكتشف أن لورا لا حصة لها في الميراث؟

عضت جسيكا شفتها وقالت: «صحيح إذن أن لي قسماً من... ماذا قلت اسمه؟ بيكرسلي؟».

تردد جايمس، ثم قرر أن لا فائدة من المراوغة أكثر من ذلك، فقال: «ليس قسماً منه، بل كله، لقد ترك آدم كل شيء لك. والآن هل فهمت لماذا تشعر لورا نحوك بكل هذه المرارة؟».

تملك جسيكا الذعر. وبدا ذلك في كل خط في وجهها المعبّر: «لا يمكن أن تكون جاداً. ولكن.. لا يمكن تصديق ذلك! لا عجب أن تكرهني السيدة بتلي، لماذا. لماذا... فعل ذلك؟».

قال بغموض: «من يدري؟».

فهزت رأسها: «ولكن لماذا يترك لي كل شيء؟ فهو حتى لم يعرفني».

ورفعت كتفيها بعجز، ثم، وكأن الإلهام سقط عليها، فحبست أنفاسها: «إلا إذا... إلا إذا...».

فقال عابساً: «إلا إذا ماذا؟».

تورد وجهها بجلاء. عندما رأى جايمس التغير السريع الذي كسا وجهها، تأكد من أن بإمكانه أن يخمّن بما تفكر فيه، فقد سبق أن لاحظت اهتمام لورا الزائد به، فالجأها المنطق إلى النتيجة الحاسمة.

وقبل أن يتابع تخمينه، أجابته: «أبي أراد أن يؤلم السيدة بتلي لسبب ما. ألا تظن أنت ذلك؟».

كانت هادئة بشكل مدهش، بعد هذا الاتهام الذي ألقته. ومضت لحظة لم يعرف فيها جايمس بما يجيبها.

وكأنما قررت أنه بحاجة إلى مزيد من الاستفزاز، فأضافت تقول: «أتظن أن السيدة بتلي قد أساءت إليه؟».

جاهد جايمس لكي يبدو لامبالياً وهو يقول: «وما أدراني؟».

فقالت بحذر: «يبدو هذا منطقياً: بما أنك تعرفها أكثر من أي شخص آخر، المفروض أن تدري».

ـ هذا ما تظنين، ولا أدري لماذا.

ـ حسناً...

بدا عليها الضيق واضحاً الآن، لكنها لم تتزحزح: «نحن الإثنان نعلم أن علاقتك بلورا ربما كانت مصدر مرارة لأبي. لهذا أظنك تعلم لماذا فعل ما فعل. وربما... أنت تشعر ببعض المسؤولية عن ذلك».

قال بخشونة وهو يقترب منها: «والآن، اصغي إلي. لقد سبق أن أخبرتك من قبل، أن علاقتي مع لورا ليست موضوعاً للحديث، وبالنسبة إلى أبيك، ليس لديه ما يلومني عليه».

كانت جسيكا ترتجف الآن. ورأى هو ذلك، لكنها ما زالت مصممة على قول ما تريد. كورت يديها وسألته: «كيف يمكنك أن تقول ذلك؟ إذا كانت لديك علاقة بزوجته...».

فردّ عليها بعنف: «لم تكن بيننا علاقة».

وتملكته الحيرة لهذه المشادة بينهما ولحاجته إلى الدفاع عن نفسه أمامها. وقالت هي بإصرار وصوت مرتجف:

ـ أتظنني سأصدق هذا؟ أنا أرى الطريقة التي تنظر بها إليك، والطريقة التي تكلمك بها، وكيف تغازلك كلما سنحت لها فرصة، ربما أنت لم تكن تحبها، لكنها هي تحبك. ولا بد أن أبي علم بذلك.

توترت أعصابه وتسارع نبضه. فمع أن في ما قالته جزءاً من الحقيقة، إلا أنه لا يستطيع أن يسمح لها بأن تتابع التفكير فيه بهذا الشكل. فقال مستعملاً نعوتاً بذيئة ليسيطر على الموقف: «اصغي إلي أيتها الحقيرة».

وبدا الألم على وجهها وهو يتابع: «سأخبرك الحقيقة، أنا الذي عرّفت آدم إلى لورا منذ البداية، أنا الذي أحضرتها إلى المنزل. كنت أسكن في بيكرسلي حينذاك، أنا أيضاً، وكانت تخرج معي عندما اختار آدم أن يسلبني إياها. وكنت أنا في الجامعة، بينما لم يكن هو كذلك!».

قالت وهي تهتز: «لا بد أن أبي قد أحبها».

فرد بحدة وخشونة: «لقد افتتن بها».

ـ وأنت... وأنت تملكتك الغيرة.

كانت مصممة على أن تكون لها الكلمة الأخيرة.

ـ محتمل تماماً.

وتنفس بعمق: «ولكن هذا لم يخفف من حقارة عمله. كان آدم يكبر لورا بحوالى عشرين عاماً. وكان عليه أن يكون أكثر حكمة».

ـ وهكذا قررت أن تنتقم.

قالت هذا وهي ترتجف، فتملكت جايمس رغبة في أن يخنقها. لكنه، بدلاً من ذلك، قال: «لا. لم أقرر ذلك. كما سبق أن قلت لك، أثناء حياة أبيك كانت علاقتي بلورا شريفة تماماً».

ـ وبعد أن مات؟

ولم تشعر جسيكا بالطريق الوعر الذي كانت تسير فيه. فأجاب: «ألم تخبرك ليوني؟ الواقع أنني، سواء صدقت أنت أم لم تصدقي، كنت أهتم بأبيك. ولدي بعض الاحترام لذكراه».

بدا وكأن جسيكا تعبت من رفع نظراتها إليه فانحدرت بها إلى ربطة عنقه المنحلة، لتستقر تحت عظمة الترقوة.

كانت وجنتاها قد ازدادتا احمراراً. لم يكن قد لاحظ من قبل أهدابها الطويلة وأطرافها التي لوحتها الشمس وحتى تقوس حاجبيها الرقيقين لم يره مألوفاً...

سأل نفسه بتوتر، ماذا يحدث لي؟ لم يكن متعطشاً إلى صحبة النساء، وتكهن بأن تأثره بهذه الجاذبية الدفينة هو الذي بعث في نفسه كل هذا التوتر والاضطراب. ولكن ما كان لهذا أن يحدث لو أن جسيكا لم تكن موجودة في انتظاره. فلولا ذلك لتابع طريقه إلى سريره مباشرة وضاع في عالم النسيان حيث تتخدر حواسه ضد أي رغبة، لكن الأمر لم يحدث بتلك الطريقة. لأن جسيكا هنا، تحبط قراره، وتعطّل ذهنه، دون أن تكون واعية لذلك. والأنكى أنها لا تشعر بخطورة الأمر.

وتنفست جسيكا بعمق: «حسناً، على الأقل أنا أعرف الآن لماذا أحضرتني إلى أسبن».

قالت هذا بهدوء وهي تعض على شفتها السفلى ثم تابعت قولها: «هل كان ذلك فكرتها هي أم فكرتك أنت؟ وإلى متى كنت مستعداً لإبقائي هنا؟».

أغمض جايمس عينيه إزاء هذه الجرح الجديد لكرامته: «جسيكا».

أصرت بتوتر: «أريد أن أعرف. لا بد أنها تضحية كبرى. لا عجب في أن لورا كانت فزعة».

تأوه جايمس: «اسمعي، أنا أعرف كيف يبدو هذا لك. لكن الأمر لم يكن بهذا الشكل. الأسباب التي جعلتني أحضرك إلى هنا، هي أسبابي أنا. وصدقيني أن هذه لم تكن مشيئة لورا».

رفعت نظرها إليه. النظرة الجريحة المتشككة في هاتين العينين البنفسجيتين الداكنتين، كانت تجهز عليه. عندما أحضر جسيكا إلى أسبن، لم تكن لديه فكرة عن الإزعاج الذي يمكن أن تسببه له. لكنه أخذ يفهم الآن، رغم أن الوقت قد فات للقيام بأي شيء في هذا السبيل.

خلافاً لرغبته تقريباً، دنا منها بخطوات غاضبة. وظن للحظة أنها ربما جفلت لحركته هذه فلم تتحرك لتقاومه.

اتسعت عيناها الآن، وامتلأتا بالغضب، وربما بالخوف. ولكن، لماذا تخاف منه؟ لعل لديها سبباً لذلك؟ ثم هل هو يعرف حقاً ما يريده منها؟

- جايمس، أرجوك...

لكن صرخة احتجاجها لم تكد تُسمع. ومع ذلك رآها تبالغ في ردة فعلها. لا بد أنها قد انصتت إلى تزايد لهفته في القرب منها.

- جايمس، ماذا تفعل؟

وشهقت ورفعت وجهها إليه لكنه تجاهل ما ارتسم على وجهها من احتجاج: «وماذا تظنينني سأفعل؟».

كم يرغب فيها.. تملكته الحيرة وهو يفكر في ذلك. كانت رغبة بدائية من كل النواحي. لا لورا ولا أيرين استطاعتا أن تثيرا مثل هذه المشاعر في داخله.

ولم يعد يعرف الخطأ من الصواب، وكان شبه واثق بأن حياته رهينة هذه اللحظة ولكن جيسكا ردته إلى صوابه ببراءة، وهمست: «أرجوك، يا لاري!».

فجفل، وألتفت إليها بعدم تصديق كلّي، واحساس مفاجيء بالهزء بالذات. لم يكن ذلك مجرد غضب عابر، واختلاط في الهوية.

لم يستطع أن ينكر شعوره العنيف بالغيرة لسماعه كلماتها. وفكر بوحشية في من عسى أن يكون «لاري» هذا.

أصيب بالإحباط، ولكنها لم تكن أقل منه احباطاً. لقد رأته يولي مبتعداً عنها. نظرت إليه بعينين فزعتين. وسواء أكانت واعية إلى ما قالته أم لا، لم يظهر عليها الإحساس بذلك في الحال. وبالعكس من ذلك، فقد شعر جايمس بالندم. ولكن لماذا تنظر إليه بهذا الشكل؟ أخذ يتساءل بصمت وقد مزّقه الشعور بالخزي وبالصدمة لأنها ظنته، خطأ، رجلاً آخر.

رجلاً آخر!.. واكتسحه وعيه المفاجيء لما قالته، وأرغم نفسه على أن يركز اهتمامه على النواحي الهامة لما حدث. لقد نطقت باسم رجل، اسمه «لاري» ومن الواضح أنه رجل تعرفه. دفع جانباً ثورة الغضب التي عادت إليه، رباه... هذه بداية... مفتاح، لو استطاعت أن تتذكر من هو لاري، لاستطاعت أن تتذكر الباقي.

ولكن، بينما كان يعاني من هذه التحليلات المؤلمة، كانت جسيكا قد انطوت على نفسها، وابتعدت عنه قدر الإمكان. نظر إليها فرأى اتهاماً في عينيها. ولماذا لا؟ أخذ يتساءل بمرارة. ليس عليه أن يلوم سوى نفسه.

ومع ذلك، لم يمكنه أن ينكر السخط الذي تملكه وهو يراها ترمقه بكل هذا الاستياء. قال أخيراً بصوت خافت ثلجي: «لاري؟».

فطرفت بعينيها: «عفواً؟ لم أسمع».

كان صوتها غير مستقر ولكن ليس أقل من صوته برودة، وقد استعادت تقريباً، سيطرتها على نفسها.

وتساءل جايمس عما يجب فعله، حتى يسلبها جو البراءة المزعج الذي يحيط بها وعاد يقول: «لاري. أنت سميتني لاري».

وضغط شفتيه، وتابع: «عفواً، لكنني لم أتعوّد أن أحسب شخصاً آخر».

تلعثمت جسيكا: «أنا. . . لا أدري ما الذي تتحدث عنه. ولكن إذا كنت تحاول أن تشوّش ذهني، فقد نجحت. على كل حال، إذا كنت تهدف بتحويل أفكاري هذه إلى أن تجعلني أنسى ما أخبرتني به عن وصية والدي، فأنت مخطىء تماماً».

فتنفس بعبوس: «جيس، كفى حديثاً عن هذا الهراء. لقد دعوتني باسم «لاري». أتظنينني أكذب في أمر كهذا؟».

أخذ صدر جسيكا يعلو ويهبط: «ما. . . ماذا فعلت؟».

فقال دون أن يفهم شيئاً: «دعوتني لاري. أرجوك يا جيس، لا تقولي إنك لم تنتبهي ذلك».

ـ لكنني لم أنتبه.

وكانت ترتجف الآن، فأخذ يحدق إليها: «هل أنت جادة؟».

وردت جسيكا بعينين متسعتين: «نعم، نعم، ما الذي يعنيه هذا؟ ومن هو لاري؟ ولماذا نطقت أنا بذلك الاسم؟».

كبح جايمس شعوره بالإحباط: «هذا شيء نريد، نحن الاثنان، أن نعرفه».

ورفع كتفيه بمرارة.

ـ من الواضح أنه اسم شخص كنت على علاقة وثيقة معه.

احمر وجهها: «نعم. هل دعوتك حقاً لاري؟».

وإذ رأى هذه النظرة في عينيها، قرر أن هذا الحديث قد طال أكثر مما يجب.

قال بلهجة حاول أن تكون رسمية: «هل أفهم من كلامك أن هذا الاسم لا يعني لك شيئاً؟».

وعندما رأى ما عليها من اضطراب أفكارها الواضح، أضاف: «إذن، أقترح أن نرجىء بقية الحديث حتى الغد».

عندئذ ترددت جسيكا، وأخيراً قالت: «هناك شيء. . عن. . عن الوصية. . .».

فصرف بأسنانه: «ستحصلين على ما هو لك، فلا تقلقي».

ـ أنا لست قلقة.

وابتلعت ريقها بجهد واضح، ثم أصرّت على المتابعة:

ـ بالنسبة إلى البيت، أنا. . . أنا أريد فقط أن أوضح شيئاً.

ولعقت شفتيها: «أنا لا أريده. لا أدري ما قلته قبل حادثة الاصطدام. . . ولماذا كان عليّ أن أحضر إلى هنا. ولكن بإمكانك أن تخبر السيدة بتلي أن بإمكانها أن تحتفظ به. وأنا. . . سأرى المحامي وأوقع الأوراق الرسمية بذلك الشأن، كل ما أريده الآن هو شيء من المال أسوّي به شؤوني إلى أن أحصل على عمل آخر. كنت دوماً مستقلة بنفسي. . . على الأقل هذا ما أظنه. وأريد أن أستمر بذلك الشكل».

* * *

١٠ ـ الصدمة

كان مستحيلاً تقريباً على جسيكا، أن تصف ما شعرت به أثناء اليومين التاليين: الاصطدام، فقدان الذاكرة والإحساس بضياع الزمان والمكان، كلما حاولت أن تتذكر الماضي. كل ذلك أصبح تافهاً بالمقارنة مع المشاعر المضطربة التي أثارها في نفسها جايمس.

لقد حدث كل شيء فجأة، انجذابها إليه كان لا إرادياً، ولقد بذلت جهدها لإخفاء مشاعرها هذه ولكنها كانت غاضبة منه لمحاولته حماية لورا. حتى في هذه اللحظة، وهي تفكر في ما ستفعله الآن بعد أن اكتشفت الحقيقة، فإن عقلها يرفض التركيز على المواضيع المتعلقة بذلك. إن كل ما يمكنها التفكير فيه هو أن علاقتها بجايمس لن تعود كما كانت أبداً.

هناك شيء واحد مؤكد، وهو أن سلوك جايمس قد خفف من غضبها، فشعورها بالخيانة عندما اكتشفت بالضبط لماذا أحضرها جايمس إلى أسين، كان مؤلماً للغاية وقد بذلت جهداً بالغاً للتخلص منه، وأصبح واضحاً الآن أن كل ما صنعه جايمس كان لحماية لورا. الحقيقة أنها أرادت أن تعتقد أن دوافعه كانت شريفة، فأخمدت كل الشكوك التي ساورتها بسبب شعورها نحوه. ولكن ليس بعد الآن، لم يعد هذا وارداً. فقد فتحت عينيها على خداعه لها بالكامل. ورغم شعورها ببعض الشفقة على لورا، إلا أن ذلك لا يمكن أن يغيّر حقيقة أنهما حجبا الحقيقة عنها.

ولكن رغم معرفتها بكل هذا، ما زالت جسيكا لا تعرف كيف تتصرف.

فبالرغم من الإثارة التي شعرت بها عندما علمت أن آدم بنتلي قد اعترف بأبوته لها في اواخر أيامه. أصبحت تشعر الآن بأنه لم يكن عليها أن تأتي إلى هنا. أتراها حقاً تركت عملها اعتماداً على إرثها هذا؟ هل قطعت كل الارتباطات مع حياتها في لندن لكي تتصل بالأسرة التي لم تكن تعلم قط بوجودها حتى الآن، وتتمنى، بشكل واضح، لو أنها غير موجودة في هذا العالم؟ وهل هذا ما جعلها تشتري معطف الفراء المقيت ذاك؟ وهذه الملابس الرسمية البليدة؟ هل كانت ترجو أن تظهر بمظهر راقٍ بهذه الملابس؟ كل شيء ممكن، كما كانت جدتها تقول. تذكرت ذلك بأسى، ثم... أمسكت انفاسها لهذه الذكرى المحيّرة.

(جدتها).

أخذت تفكر دون اتزان. إذن، كان لديها جدة! وتأوهت وهي تضغط بإصبعها على صدغيها شاعرة بالإحباط. ليتها تستعيد ذاكرتها فقط. ليتها فقط!

اليوم الذي تلا مواجهتها مع جايمس، أمضته في حالة رعب، متوقعة في كل لحظة أن يرسل طالباً منها الرحيل. لم تستطع أن تصدق أنه يريد منها البقاء بعدما حدث. وأمضت بعض الوقت في إعداد ما ستقوله ولكن أثناء الغداء أخبرتها السيدة هايز أن السيد بنتلي اضطر إلى الذهاب إلى «ليدز» ليرى مديرة مدرسة ليوني، وأنها لا تعرف حقاً متى يعود.

ـ هل هناك مشكلة بسبب... أخذ ليوني إجازة يوم؟

سألتها جسيكا وهي تقابل نظرات مدبرة المنزل ببعض الإضطراب.

فقالت مدبرة المنزل: «لكن السيد بنتلي كان يعلم بالأمر، أنت قلت ذلك بنفسك، وأنت التي طلبت ذلك منه. أليس كذلك؟».

انتبهت جسيكا لكذبتها هذه، فقالت بابتسامة باهتة: «ورغم هذا، قد يكون نسي، ولا أريد أن تُلام ليوني».

ـ السيد بنتلي لا ينسى شيئاً، والآن، استمتعي بغدائك.

بذلت جسيكا جهدها لكي تأكل، ولكن رغم حبها للسلطة وشرائح السلمون، إلا أن شهيتها كانت غائبة تماماً وافترضت أن عليها أن تكون مسرورة لغياب جايمس. لكنها لم تكن كذلك. ولم يتضح لها بعد في ذهنها كيف

ستتصرف.

عاد جايمس عند العصر، وسمعت جسيكا صوت الرانج روڤر بينما كانت جالسة في الرواق مستمتعة بكأس عصير من البرتقال. وأعدت نفسها للمواجهة التي لا مناص منها. ولكن رغم أن ليوني قد قدمت إلى الرواق إلا أن أباها لم يبد له أثر.

ـ آه، مرحباً.

ألقت التحية على جسيكا بلهجة عرجاء وتابعت مشيرة إلى إبريق العصير المثلج بجانب جسيكا: «ذلك يبدو حسناً. سأذهب وأحضر كأساً».

ـ انتظري.

وعضت جسيكا شفتها: «هل... هل حدث شيء سيء هناك؟».

فبدت الحيرة على ليوني: «وماذا سيكون؟».

فتنهدت جسيكا: «لا. كنت أتساءل فقط لماذا اضطر أبوك إلى الذهاب إلى المدرسة؟».

هزت ليوني كتفيها دون اكتراث: «كان فقط اجتماع الآباء».

وعبست: «حسناً هل ظننتهم سيطردونني من المدرسة لأنني اخبرتهم بعدة أكاذيب بيضاء؟».

فهزت جسيكا رأسها: «لم أكن اعلم ما عليّ أن أظن».

ـ يمكنك أن ترتاحي الآن. لم يحدث شيء مشؤوم.

تملك الارتياح جسيكا. وبعد أن دخلت ليوني المنزل لتغيير ملابسها، انتظرت ظهور جايمس. وعلى كل حال، خيب أملها مرة أخرى، وعندما عادت ليوني إليها أخبرتها بأن أباها ذهب رأساً إلى الإصطبلات.

ـ هل تريدين أن تأتي أنت أيضاً؟

سألتها وهي تجرع كأس عصير ثم تمسح فمها بقفا يدها.

ـ انتبهي... فهو يبدو في مزاج كريه.

أرغمت جسيكا نفسها على الابتسام: «أظنني سأبقى هنا».

قالت هذا رغم أن لهفتها لرؤية جايمس مرة أخرى واختبار ردة فعله

تجاهها، كانت تمزقها إرباً. لكن مواجهة أخرى معه هي أمر غير مستحب.

لم تجادلها ليوني. كان واضحاً أنها متلهفة للذهاب إلى الاصطبلات لتأخذ حصانها المحبوب إلى النزهة، ولاحظت جسيكا أنها كانت ترتدي نفس الطقم الذي ابتاعتاه معاً منذ أيام في «هاروغيت». وغدت ليوني، بوجهها المتوهج حماسة، قريبة من الجمال.

قالت الفتاة: «حسناً، سأراك فيما بعد».

ثم اندفعت إلى الاصطبلات، بينما أخذت جسيكا تفكر بمبلغ سخرية القدر. ففي الوقت الذي ابتدأت ليوني تتقبلها بمودة، أصبح عليها هي أن ترحل. وقفت جسيكا، وهي تقاوم رغبة تدفعها للحاق بالفتاة، ثم استدارت ودخلت المنزل. ماذا ستفعل؟ أخذت تتساءل وهي تصعد السلم ببطء إلى غرفتها. إنها ترى أن لديها فقط خيارين، الأول، هو أن تحاول وضع ما حدث بينها وبين جايمس خلف ظهرها، ثم تنتظر إلى أن تستعيد ذاكرتها وبعد ذلك ترحل. كان هذا ما يزال أجمل خيار أمامها، رغم أنه في هذه الظروف، أقل الخيارين احتمالاً. أما الثاني، فيمكنها أن تفعل ما اقترحته لجايمس نفسه. وهو أن تعود إلى لندن وتحاول أن تهزّ عقلها الفاقد الوعي فتدفعه إلى الحركة.

ولكن ليته أظهر شيئاً من الاهتمام لما حدث لها. ألم يكن لديها أصدقاء؟ أم أنها تخلت عنهم جميعاً عندما ورثت كل هذا بشكل غير متوقع؟ وارثة! وقطبت جبينها.. لأنه كلما فكرت أو قالت شيئاً يومض شيءٌ دفينٌ في داخلها، وهو يزداد مع مرور الوقت قوة.

عمّ التفاؤل قلبها. وهي تدرك بشكل ما، أنها سمعت تلك الكلمات من قبل. هناك شخص ما، في مكان ما، قد أفضى بها إليها، ولكنها عندما تحاول أن تجهد ذهنها لكي تتذكر من قالها، يعود ذهنها صفحة بيضاء كما كان. سوف تتذكر قريباً، ولا شيء سيمنعها من ذلك، هذا ما قاله لها الدكتور بانل. وعليها فقط أن تنتظر بصبر.

استحمت وغسلت شعرها قبل العشاء، ثم تركته منسدلاً على كتفيها، رافضة التفكير في أنها محاولة لا جدوى منها لكي تبدو جذابة في نظر جايمس.

www.liilas-romance.com

لكنها اعترفت بأنها كانت تتمنى لو استطاعت أن تشتري لنفسها شيئاً أجمل من هذه البلوزة الحريرية التبنية اللون، والبنطلون المخملي البني الملزمة بارتدائهما دوماً. لقد سبق أن رآهما من قبل، ولا تستطيع القول إنهما لم يكونا غير أنيقين، إلا أنها كانت تفضل ثوباً من القطن.

ما كان عليها أن تقلق. إذ كما توقعت، أخبرتها السيدة هايز أن السيد بتلي سيتناول العشاء في بيكرسلي، ومرة أخرى كان عليها وعلى ليوني أن تتناولا العشاء وحدهما.

تركتها جسيكا تتحدث. كان الأسهل عليها أن تصغي إلى ثرثرة ليوني من أن تستغرق هي في أفكارها الحزينة.

هذا إلى أنها سرت لأن الفتاة أخذت تثق بها وتعاملها وكأنها عضو حقيقي في الأسرة. وفيما بعد، وفي سكون غرفتها لم يكن هناك من يلهيها عن أفكارها المقلقة تلك. لقد أمضت النهار بطوله تفكر في ما سيحدث بينها وبين جايمس، وتعمدت أن تتجنب التفكير في ما حدث.

كيف حدث ذلك؟ حتى الآن، وبعد مرور الوقت، ما زالت تجهل حقيقة ما وقع. فقد كان يتصرف خلافاً لعقيدته، أو ربما، ببساطة، خلافاً لإرادته.

لقد قال إنها دعته باسم «لاري» ولكنها لا تتذكر أنها نطقت بهذا الاسم. وهكذا طفا شيء من الماضي، مرة أخرى، إلى السطح من ذاكرتها. من أعماق عقلها الباطن. من هو لاري هذا؟ هل كان شخصاً أحبته فعلاً؟ وإذا كان ذلك لماذا لم يأت ليراها حالما أعلن عن الاصطدام؟

بالرغم من كل تلك الشكوك، كان شعورها المتهالك بجاذبية جايمس، أقوى من كل ذكرياتها.

ذهبت أخيراً إلى السرير، ولكن ليس لتنام. فقد بقيت تنقلب وتتململ طوال الليل. وكانت تستفيق احياناً متوهمة أن هناك من يحاول ايقاظها. ولكن الصوت الوحيد الذي كانت تسمعه هو صوت الرياح وهي تتأوه خلال الأشجار.

استيقظت في الصباح في الساعة السادسة والنصف، مصممة على أن لا تدع

جايمس يتجنبها. كان عليها أن تراه قبل أن تقرر أي شيء. لأنه وحده الذي يمكنه أن يعطيها عنوان محامي أبيها، وفوق ذلك لم يكن لديها نقود. ولم تكن قررت بعد ما ستفعله بالنسبة إلى مستقبلها. ولكن بعد أن أصبحت الآن تعرف كل شروط وصية أبيها، فإن هناك شيئاً معيناً عليها أن تقوم به. أولاً، كانت تنوي أن تعرف كيف يمكنها أن تنقل ملكية منزل أبيها إلى لورا. لم تكن تريده، بل لم تكن لديها أية رغبة في رؤيته.

كان صباحاً جميلاً، لكنه حافل بالغيوم، واعتقدت جسيكا أنه يعكس مزاجها، كم ستفتقد النهوض في أسبن عند الصباح، وأصوات العصافير وصهيل الخيول في المرعى!

عندما هبطت إلى الطابق الأسفل كانت الساعة السابعة والنصف، ولم تكن أزعجت نفسها بوضع أية زينة على وجهها. لكن الإنزعاج تملكها حين دخلت غرفة الطعام فوجدت أن جايمس رحل وكان ذلك واضحاً من الفوطة المستعملة الموضوعة بجانب الصحن، ومن ابريق القهوة البارد.

ـ تباً لذلك.

استدارت جسيكا إلى الباب الذي انفتح خلفها الأمر الذي جعل مديرة المنزل تسمع هتافها اللاإرادي، فقالت المرأة رافعة حاجبيها: «عفواً».

فبدا الأسف على جسيكا وأخذت تعتذر على الفور: «ظننت أن السيد بتلي ما زال هنا. لا بد أنه تناول فطوره مبكراً للغاية».

قالت هذا وهي تفكر بصمت في أنه ربما فعل ذلك ليتجنبها.

فأجابت السيدة هايز: «طلب مني السيد بتلي أن أخبرك بأنه سيراك فيما بعد. لديه خبر لك، شيء يتعلق بالاصطدام، كما أظن».

ابتلعت جسيكا ريقها: «الاصطدام؟».

ما الذي يمكن أن يخبرها به عن الاصطدام؟ إلا إذا... إلا إذا كان هناك شخص يعرفها قد جاء ليراها!

فقالت المرأة: «نعم قال إنه سيعود حوالى الساعة التاسعة، لا أظنه كان يعلم أنك ستستيقظين مبكرة بهذا الشكل».

ـ هذا صحيح.

قالت جسيكا هذا دون تعليق، لكن ذهنها كان يعمل بسرعة، وأدركت أن الوقت من الآن إلى التاسعة سيمّر ببطء بالغ.

ـ هل أحضر لك طعام الفطور إذن؟ هل تريدين قهوة وخبزاً محمصاً فقط كالعادة؟ أم تريدين شيئاً آخر؟

ـ قهوة فقط. شكراً.

ما إن حلّت الساعة التاسعة، حتى كانت أعصاب جسيكا قد توترت إلى حد الرغبة في الصراخ.

كانت قد تركت الرواق وأخذت تتسكع بجانب حوض زنابق عندما وجدها جايمس. لم تستدر نحوه على الفور، عندما سمعت وقع خطواته، ومضت لحظة هدّأت فيها من ملامحها قبل أن تواجهه.. كان يبدو وسيماً إلى حد يشغل البال في بنطلونه الأسود وقميصه المفتوح عند العنق.

كان واضحاً أن ما حدث بينهما لم يؤرقه ليلاً. وبرغم بعض التوتر في ملامحه، كانت عيناه الفضيتان المتألقتان صافيتين يقظتين.

ـ صباح الخير.

حياها بعفوية. وخيّل إليها أنها سمعته يقول ذلك بنبرة مقتضبة. أتراه يشعر مثلها بغرابة وضعهما؟ ردّت: «صباح الخير. قالت السيدة هايز إنك تريد رؤيتي. وهذا شيء مناسب فأنا أيضاً أريد أن أراك».

فرفع حاجبه قائلاً: «حقاً؟ حسناً، أنا هنا الآن. هل لك أن تخبريني بما هو؟».

فترددت: «يمكنني الانتظار».

قالت هذا معتقدة أن ما سيقوله جايمس قد يجعل كلامها غير ضروري. ونابعت تقول: «قالت السيدة هايز إن لديك خبراً عن حادثة الاصطدام. هل هذا صحيح؟ هل حدث شيء؟».

تردد جايمس، ثم قال وهو يحدق في حوض الأزهار: «حسناً، كنت أتناول العشاء في «ليدز» الليلة الماضية، فتبادلت الحديث مع رئيس مفتشي

الشرطة الذي عالج موضوع الاصطدام. يبدو أنهم وجدوا بعض الأوراق في حقل قرب مكان الاصطدام. لقد وجدها بعض الأولاد فأخذوها إلى بيوتهم ويبدو أن أهاليهم رأوا أنها تستحق أن تؤخذ إلى مخفر الشرطة. فوجدوا بالفعل أنها ذات أهمية بالنسبة إلى شخص ما».

فقطبت جبينها: «أوراق؟ أي نوع من الأوراق؟».

ـ حسناً، أعتقد أنها رسومات. تخطيطات على كل حال. ذلك النوع الذي يتجه طلاب الفنون كما تعلمين.

وقطب جبينه: «أو ربما لا تعلمين. تبدو وكأنها صفحات من دفتر رسم، تصميمات لنقوش على النسيج».

طرفت جسيكا بعينيها. وكان صعباً عليها أن تركز على ما كان يقول، وهي تسترجع ذكرياتها العالقة في ذهنها.

ومع ذلك، شعرت إزاء كلماته بعدم ارتياح، وأرغمت نفسها على أن تتذكر ما أخبرها جايمس به عن الفتاة الأخرى التي كانت في القطار. اسمها، كما أخبرها، هو سيسلي. سيسلي شامبرز. وكانت طالبة فنون.. وهذا يعني أن الرسومات خاصة بها. ولكن هذا لا يوضح السبب الذي جعله يخبرها عن الأوراق.

وعندما سكت جايمس وهو ينظر إليها بطرف عينه، قالت: «لا أدري... ماذا تعني تلك الأوراق بالنسبة إليّ».

ـ لا تعلمين؟

تشوّش ذهنها: «لا. لقد أخبرتني أن تلك الفتاة التي كانت بقربي في القطار، كانت طالبة. من الواضح أن هذه الأوراق هي لها».

أمال جايمس رأسه جانباً: «نعم. هذا ما ظنه المفتش».

هزت رأسها: «إذن؟».

أدهشها بقوله: «ما زلت أظن أن عليك أن تري الأوراق تلك».

ثم سحب نفساً عميقاً: «لقد أخبرت المفتش بذلك».

أخذت تحدق إليه، ونسيت قلقها وهي تستوعب هذه التطورات غير

www.elromancia.com

المتوقعة. لماذا يريدها جايمس أن ترى الأوراق؟ وما الذي تعرفه هي عن كل الرسوم؟ إلا إذا كان يتشبث بأول فرصة ليتحرر من مسؤوليتها؟

لم تكن مستعدة للجدال معه. إذا كان لديه شك في أن رؤية تلك التخطيطات قد يحي ذاكرتها، فستوافقه على ذلك. وتنفس جايمس بعمق: «حسناً. لقد أخبرت «هانين»، وهو المفتش، أنني قد أحضرك إليه عصر هذا اليوم».

فقالت بجفاء: «تحضرني إليه؟ يا له من تعبير مناسب».

تنهد وسألها بفروغ صبر: «أنت تعلمين جيداً ما أقول».

ـ آه، نعم. أنت تأمل أن تشفيني هذه الأوراق. أليس كذلك؟ تريد التمسك بأي شيء يجعلك قادراً على الخلاص مني. هل أصبحت أنا مصدر إرباك لك إلى هذا الحد؟

لم يكن هذا ما كانت تريد أن تقوله له. لكن الكلمات انطلقت وعليها أن تعترف بها، وعلى كل حال، لماذا عليها أن تشعر بالخجل؟

التفت إليها بنظرة صارمة: «هل هذا ما كنت تريدين أن تحدثيني عنه؟».

فقطبت جبينها: «لا أفهم...».

ـ بل أظنك تفهمين. أنت تشيرين إلى سلوكي تلك الليلة. كان شيئاً عابراً.

جاهدت جسيكا لكي تمنع اهتزاز ساقيها المفاجىء، وقالت: «في الواقع، لم أفكر في ما حدث تلك الليلة».

قالت ذلك عالمة أنه غير صحيح. فقال: «لا؟».

فرفعت رأسها: «لا. هل هذا سبب تجنبك الحديث معي حتى اليوم؟».

أظلم وجهه: «لم أكن أتجنبك».

ـ لم تكن.. حسناً هكذا بدا الأمر لي بكل تأكيد. وعلى كل حال، ليس لي خبرة كافية بهذه الأمور.

رفع جايمس يده، وظنت جسيكا لحظة أنه سيضربها لكنه لم يفعل، وبدلاً من ذلك قال: «اسمعي. فلنتوقف عن هذه المخادعات. إذا لم تكوني هنا

لتخبريني أي نذل أنا عندما حاولت اغواءك، فلماذا أردت رؤيتي إذن؟ أنا أجرؤ على القول انني سبق أن أصبحت موصوفاً في عينيك بصفتي رجلاً ينام مع زوجات الرجال الآخرين، ويحاول إغواء الفتيات الصغيرات البريئات. استمري في كلامك إذن!».

تراجعت جسيكا الآن عن كلامها اللاذع، وقالت بارتباك: «لا تكن غبياً. أنا لست طفلة».

فقال بخشونة: «الأفضل أن تصدقي ذلك، بدلاً من تقديم عروض عديمة الجدوى».

فطرفت بعينيها: «أية عروض عديمة الجدوى؟».

فرد بحدة: «قولك إن بإمكانك أن تعطي بيكرسلي للورا، أتظنين حقاً أن أباك لم يكن حريصاً على منعك من القيام بشيء كهذا؟».

فوجئت جسيكا وقالت بصوت أبح: «هل تعني... هل تعني أن ليس بإمكاني ذلك؟».

فقال وهو يستدير ليبتعد: «هذا غير محتمل على الإطلاق. عليّ أن أذهب، يجب أن انهي العمل هذا الصباح لأن علي الذهاب إلى ليدز عند العصر».

فهتفت به دون وعي: «آه، ولكن...».

وحين التفت إليها، قال بصوت غريب: «ليس الآن، يا جيس».

وقبل أن تبدي احتجاجها، استدار وابتعد عنها.

* * *

عند الغداء أخبرتها السيدة هايز أن جايمس سيأتي لأخذها إلى ليدز الساعة الثانية والنصف. ويبدو أنه رأى من الحكمة ألا يتناول الغداء معها. وهكذا تأجلت نيتها في أن تخبره بأنها راحلة، مرة أخرى. يجب أن يعلم أن ليس بإمكانها أن تمكث هنا بعد الآن. وبعد الطريقة التي تصرف بها هذا الصباح، أصبحت واثقة من أنه سيرتاح عندما يراها راحلة.

كان الجو حاراً، فعقدت جسيكا شعرها على شكل ضفيرة ثم وضعت عليه عصبة من المطاط، كما فعلت أيام المستشفى وبدا لها ذلك مألوفاً. بيد أنها

www.elromancia.com

لاحظت أن صورتها في جواز سفرها، مختلفة تماماً. كان شعرها منسدلاً على كتفيها بحرية. كانت ترى ، أحياناً، أن الصورة تشبهها بشكل جيد، وأحياناً أخرى تشكك في صحتها. كانت صورتها طبعاً. من المفروض أنها هي. ولكن عدم إلفتها لها شيء غريب بالطبع. كان ينبغي أن تعني شيئاً ما، ولكن هذا لم يحصل.

بما أنها لم تشأ ارتداء البنطلون الجينز أثناء زيارتها إلى المخفر، اضطرت أن تلبس أحد الأثواب التي كانت في الحقيبة. كان ثوباً قطنياً لم تلبسه من قبل، وردي اللون ذا أربطة ضيقة على الكتفين وتنورة ذات ثنيات تبدأ من الخصر.

كان جايمس في انتظارها في الردهة. مراعاة لحرارة الجوّ، لم يكن يرتدي سترة هو أيضاً، وزادت دكنة ملابسه من رزانة ملامحه، لكنه حاول أن يبدو بشوشاً حين رآها، وشعرت بنظراته المتفحصة.

ـ آسفة لتأخري في المجيء.

وأدركت أن كلماتها مبتذلة لكنها لم تستطع التفكير في شيء آخر تقوله.

ـ لا بأس.

أجابها وهو يفتح الباب الأمامي ويدعها تمرّ أمامه:

ـ السيارة هناك.

وقادها إلى الرانج روفر الواقفة بجانب المنزل، وهو يقول: «لقد أخبرت السيدة هايز بأننا خارجان».

أمضيا الرحلة إلى ليدز صامتين تقريباً. لكن جسيكا حاولت عدة مرات أن تبدأ حديثاً، آملة أن تجد طريقة توضح بها ما تنوي عمله. ولكن جايمس كان مستغرقاً في أفكاره. وأجوبته لها كانت مقتضبة للغاية، وقررت جسيكا اخيراً أن بإمكانها أن تنتظر رغم علمها بأن هذا جبن منها. سيكون لديهما وقت وافر للحديث في طريق العودة من المخفر.

كان «هاين» رئيس المفتشين، رجلاً في أواخر الأربعينات من عمره، ورغم مظهره غير الجذاب، فإن ابتسامته كانت دافئة مرحّبة.

ـ ألا تتفضلين بالجلوس، يا آنسة دقلين؟

قال المفتش هذا مشيراً إلى أحد الكرسيين الموجودين أمام مكتبة. وأشار إلى جايمس، مبتسماً للجلوس هو أيضاً. ثم جلس بعدهما وهو يقول: «هل أحضر لكما قهوة؟ أم تفضلان أن نبدأ العمل؟».

تبادلت جسيكا نظرة مع جايمس، وإذ احست منه الرغبة في البدء بالعمل، التفتت إلى المفتش قائلة: «أظنني أفضل رؤية التخطيطات... السيد بتلي يظن أن عليّ أن أراها على كل حال».

أومأ المفتش الرئيس برأسه: «نعم».

ثم نظر إلى جايمس.

ـ عليّ أن أخبرك بأن شخصاً آخر سأل عن التخطيطات هذا الصباح. أليس هذا محيراً؟ حتى الآن، حسب علمي، لم يعرف بأمرها أحد ما عدا الأطفال الذين عثروا عليها، طبعاً، وآباؤهم. ولكن يبدو أن صحيفة محلية نشرت قصة نقلها فتلقفتها منها إحدى الصحف الكبيرة في لندن فجاء ذلك الشاب هذا الصباح يدعي بأن تلك التخطيطات هي له وليست لأي من ركاب ذلك القطار على الإطلاق.

فأجاب جايمس: «ومن هو؟».

فأجاب المفتش: «الأفضل ألا أذكر اسمه حالياً، ليس قبل أن ترى الآنسة دقلين التخطيطات على كل حال».

ثم فتح الملف الذي أمامه: «هذه هي».

كانت الأوراق التي دفعها عبر المكتب إلى جسيكا سميكة ذات لون سكري، والعناية بها واضحة. ومرة أخرى شعرت بالإلفة وهي تمسك بها بيديها، ولم تستطع أن تعرف السبب، لكن شعوراً بأنها رأت هذه الصفحات من قبل أرهق أعصابها، ولكن كيف يمكن هذا، بينما المفتش قال لتوّه بأنها ملك لشخص آخر. شخص لم يكن في القطار على الإطلاق؟ هذا ما لم تستطع فهمه.

أخذت تقلب الأوراق بأصابع مرتجفة، وتحدّق بعينين زائغتين إلى التصاميم التي تحتويها. هناك شخص قد بذل جهداً فائقاً في إنتاجه هذا العمل الشديد التعقيد. كما أن جمال الفن والألوان واضح. شعرت بدقات قلبها تتسارع وهي تنظر إلى

هذه الأوراق، وكان هناك شيء من الذعر يجتاح جسدها. لكن ردة فعلها كانت لا إرادية. عندما استمرت في التحديق إلى هذه التخطيطات، أخذ يقوى في نفسها شعور بأن هذه التصاميم تعني لها شيئاً ما. ولكن، ما هو؟ وبالرغم مما قاله رئيس المفتشين هانين، أتراها رأتها في القطار؟ وهل الفتاة الأخرى تلك، سيسيلي شامبرز، أرتها إياها؟ وفجأة وضعت يديها على رأسها. ليتها تستطيع أن تتذكر. وكأن جايمس لاحظ يأسها، فقد ابتسم يطمئنها بشكل غير معتاد. كانت ابتسامته غير مألوفة، مثلها في ذلك مثل هذه الأوراق التي أجهدت ذهنها في التعرف إليها. وكانت قد أثارت شعوراً غريباً بالمعرفة، فحوّلت عينيها إليه تقابل نظراته الثابتة بفزع عاجز، بينما كان يعلق نظراتها بنظراته، وسألها برقة: «هل تعرفت إلى الرسوم؟».

ترددت لحظة قبل أن تهز رأسها، ثم صرخت وهي ترى المفتش يطيل النظر في ردة فعلها: «أتظن أن من المفروض أن أتعرف إليها؟».

ـ عليك أنت أن تخبرينا.

أجاب جايمس بذلك وقد بدا عليه أنه يدرك ما يفعل. ثم تابع يقول:

ـ إذا كان ما يقوله السيد هانن صحيحاً، فالمفروض ألا تتعرفي إليها. لكن الأمر ليس بهذه البساطة. أليس كذلك؟

زمت جسيكا شفتيها تحاول السيطرة على رعشة تملكتها. جايمس على صواب، طبعاً. دوماً هو على صواب.

كدرتها هذه الرسوم كثيراً... ولكن ماذا يعني هذا؟ وماذا يحاول أن يخبرها به؟ إنها ليست جسيكا دقلين؟ ودار رأسها. ما أكثرها من أسئلة لا تستطيع أن تجيب عن واحد منها.

تنفست بعمق، وجمعت الأوراق معاً ثم دفعتها تعيدها نحو مفتش الشرطة وهي تسأله عائدة إلى كرسيها: «أما كان الأفضل حفظ هذه الأوراق في محفظة؟».

قطب الرجل حاجبيه وسألها وهو يميل رأسه: «محفظة؟ أي نوع من المحافظ؟».

ـ آه! تعلم أحد تلك الأغلفة ذات الأربطة التي تحفظ الصور مكانها.

قالت هذا بفروغ صبر، وعندما لاحظت أن جايمس عاد يحدق إليها، عبست.

ـ حسناً أعتقد أن هذه الرسوم قد سقطت من محفظة شخص ما. إنها تبدو لي وكأنها جمعت من أجل الدراسة.

قال جايمس مفكراً: «أحقاً؟ غريب أن تعرفي شيئاً كهذا».

فشعرت بنفسها ترتجف: «هذا شيء يعرفه أي شخص حتماً».

قال متشككاً: «ربما، ولكن هل كانت جسيكا دقلين تعرف ذلك؟».

حدّقت إليه: «هل تحاول أن تخيفني؟».

فأجاب: «لا، أريد فقط أن أصل إلى الحقيقة».

ثم التفت إلى المفتش: «ما رأيك».

رفع المفتش الأوراق ثم نشرها أمامه مرة أخرى، قائلاً بحيرة: «لا أدري ما عليّ أن أفكر فيه، يا سيد بتلي، ولكن ربما حان الوقت لأن أعرفكما بالسيد الذي يقول إنه صاحب هذه التخطيطات».

ووقف ثم سار يفتح باباً يؤدي إلى المكتب الخارجي ويصيح: «غريفيث، هل لك أن تحضر السيد «أرنوت» إلى هنا؟».

انتظرو جميعاً وقد جفّ فم جسيكا، لم يعن الإسم «أرنوت» شيئاً لها، ولكن لماذا يعني لها أي شيء؟ إذا كانت هي حقاً جسيكا دقلين...

تناهى صوت وقع أقدام على أرض المكتب الخارجي. والتفت الجميع عندما أدخل الشرطي «غريفيث» رجلاً آخر إلى الغرفة. كان رجلاً عريضاً متوسط الطول، ذا عينين باهتتي الزرقة ومظهر متناسق نوعاً ما، ويرتدي بنطلوناً رمادياً وسترة قطنية خضراء. حالما رأته جسيكا، نضح جلدها بعرق بارد ووقفت مترنحة وقد تملكها ذعر لم تشعر بمثله في حياتها، ورغبة غير عقلانية في الخروج من الغرفة. لم تستطع أن تفكر، ولا أن تتنفس، والغرفة التي كانت حرارتها مريحة جداً منذ لحظات أصبحت خانقة فجأة. رأت جايمس ينهض هو أيضاً، ورأت المفتش أيضاً وقد تملكه المشهد فجأة. لكنهما لم يشغلا

www.elromancia.com

بالها إلا قليلاً. كانت تريد أن تخرج... لكنها لم تستطع ذلك، فقد كان الشرطي غريفث والرجل الذي معه يسدّان الطريق عليها. ثم، عندما رآها الرجل، نظرت في عينيه فإذا به أشبه بمن رأى شبحاً وشحب لونه هو الآخر.

وهتف غير مصدّق: «سيسي!».

وسمعت صوتها يهمس: «لاري!».

وذلك قبل أن تسقط مغمياً عليها.

* * *

١١ ـ سيدة قلبه..

ـ اتصال يا سيسي.

نادتها «شارون غوج» عبر غرفة المكتب، فجذبت الفتاة التي تكبرها سناً، نفساً عميقاً. ثم قالت: «أنا مشغولة، من المتكلم».

ـ إنها فتاة.

أجابت شارون عابسة، ثم وضعت كفها على فوهة السماعة: «تعالي، عليك أن تجيبي على المكالمة. لا أستطيع أن أقول مرة أخرى إنك لست موجودة».

فقطبت سيسي: «فتاة؟».

وتساءلت من عسى أن تكون. فهي عدا زملائها في المكتب، لم تكن تعرف سوى قليل من الناس في ليدز. وسألت: «ألم تذكر اسمها؟».

تصنعت شارون الحزن: «أظنها ذكرت اسم «لي» أو شيئاً كهذا. اسمعي، هل ستأتين؟ لديّ عمل آخر غير هذا».

نهضت سيسي عن المكتب. ماذا تريد ليوني باتصالها بها إلى هنا؟ لقد كانت تأمل بأن تلك الحادثة قد انقضت وانتهى أمرها، تناولت السماعة من شارون: «آلو؟ ليوني؟ أهذا أنت؟».

ـ ومن غيري؟

وبدا صوت ليوني أليفاً للغاية.

ـ ما أحسن أن أتحدث إليك مرة أخرى يا جيس.. جيس! أعني سيسي. كيف حالك؟ مضى دهر لم نسمع فيه أخبارك.

www.elromancia.com

أخذت سيسي تهدىء نفسها قبل أن تجيب. آخر مرة اتصل بها جايمس، أوضحت له بأنها لا تريد أن تتكلم معه مرة أخرى. ولكن من الواضح أنه لم يخبر ابنته بذلك، ردت سيسي: «أنا بخير».

لا يمكن أن تأخذ الفتاة بذنب أبيها. ولكنها لا بد أن تفهم أن فرص الابقاء على علاقة من هذا النوع ضئيلة للغاية.

قالت ليوني: «هذا حسن. لأن لديّ دعوة لك».

ـ دعوة؟

وتصلب جسد سيسي. فقالت ليوني دون أن تلاحظ نقص الحماسة في صوت سيسي: «نعم. أبي غير موجود حالياً، وفكرت إن كنت تحبين تناول العشاء معي غداً مساء».

تحيّرت سيسي. كان من السهل أن ترفض الدعوات التي كان جايمس يوجهها إليها، فهي تعلم أنها صادرة عن الاحساس بشيء من المسؤولية تجاهها. ولم يكن من الضروري، أن يشعر بأنه ملتزم بإبقاء أي صلة بينهما، وكرهت، بشكل خاص، ذلك الضعف فيها الذي أثاره عطفه عليها. لم تكن تريده أن يشعر بالأسى عليها. . ولم تكن تريد منه أن يشعر بأن عليه أن يهتم بما يحدث لها، ولكن ليوني. . . ليوني كانت مسألة أخرى. فهي لا تستطيع أن تؤذي شعور الفتاة.

وسألت الفتاة: «متى سيعود أبوك؟».

فتنهدت ليوني: «آه، يوم الجمعة، كما أظن. وهل هذا مهم؟ أتريدين رؤيته؟».

ـ آه، لا.

ولعقت سيسي شفتيها. اليوم هو الأربعاء. وتابعت تقول: «الأمر فقط هو. . حسناً، أنا سأتأخر في العمل مساء الغد. كنت أحب جداً أن أتعشى معك، لكنني آسفة لأن هذا مستحيل».

ـ وهل ستتأخرين في العمل هذه الليلة؟

سألتها ليوني على الفور، فأدركت سيسي غلطتها: «حسناً، لا».

اعترفت سيسي بذلك بعد أن أدركت أنها إذا لم تكن حذرة فستقترح ليوني عليها أن تأتي للعشاء ليلة الجمعة، فأضافت: «لست مشغولة الليلة. لماذا؟ هل يمكن أن تكون الدعوة هذه الليلة؟».

ـ طبعاً. إذا أنت أعطيتني عنوانك، سيأتي السيد هايز ليأخذك الساعة السادسة والنصف.

فقالت سيسي وكأنها تنتظر الدعوة بسرور: «هذا جميل. إلى اللقاء فيما بعد إذن، وشكراً لاتصالك».

نظرت شارون، موظفة الآلة الكاتبة إلى سيسي وهي تمرّ بها، وسألتها، متهكمة، بعد أن أصغت إلى الحديث.

ـ هل ثمة خبر سيء؟

فهزت سيسي كتفيها: «ماذا جعلك تظنين ذلك؟ في الواقع، لا يمكن أن تكون الأمور أفضل مما هي الآن. لقد تلقيت دعوة إلى العشاء. هل هناك ما هو أحسن من ذلك؟».

فلوت شارون شفتيها: «كنت أعرف أنك ستذعنين له عاجلاً أم آجلاً، أعني، حتى وإن كان كبير السن، فلديه مال كثير، أليس كذلك؟».

رفضت سيسي أن تردّ على تعليقات شارون، لأن الفتاة أرادت فقط أن تجعلها تتكلم. كل شخص يعمل في شركة «ريبلي» تملكه الفضول بشأن علاقتها بجايمس بتلي ولم يكن هذا مدهشاً بعد أن امتلأت الصفحات الأولى من الجرائد، بالخبر.

لا يحصل كل يوم أن يخلط الناس بين طالبة عاطلة عن العمل وبين وارثة غنية. كانت تلك حادثة قليلة الاحتمال أن تتشابه الفتاتان، هي وجسيكا دقلين، إلى هذا الحد، وزاد في الطين بلة فقدانها لذاكرتها، الأمر الذي كان ملائماً تماماً، أو على الأقل هذا ما ظنه الكثيرون، وكانت واثقة من أن الرأي العام قد توزع بالعدل بين أولئك الذين تعاطفوا معها وأولئك الذين ظنوا أنها استغلت الوضع.

حاول جايمس أن يتصل بها في الاسابيع الستة التي اعقبت استعادتها

لذاكرتها، لكن ذلك أضاف وقوداً إلى القصص التي أحاطت بها. ولم يغير من الأمر شيئاً، أنها رفضت دعواته إلى أسبن، وتجنبت محاولاته رؤيتها. الساخرون ما زالوا يظنون أن إذعانها إلى دعواته هو مسألة وقت لا غير.

كان قبولها دعوة ليوني غير ملائم تماماً، ولكنها لن تبقى طويلاً في ريبلي. وستغادرها حالما تجد البديل المناسب. ولذلك فلم تكن تلقي بالاً لأي نظرة ذات معنى، من زميلاتها.

جلست سيبي إلى مكتبها وتنهدت. يا له من وضع مشوّش مضطرب كانت فيه! أن تظن أنها فعلاً جسيكا دڤلين! ما أغرب ما يمكن أن يقوم به العقل من أحابيل! خصوصاً إذا لم يستطع الشخص أن يتذكر ماضيه.

هل كان هناك سبب آخر جعل القصة تتصدر العناوين الأولى في الصحف؟ لقد كشف «توبي لانغلي» محامي اسرة بتلي أن جسيكا دڤلين الحقيقية، كانت قادمة إلى الشمال لكي تقوم ببيع أملاك والدها. المصنعان اللذان كانا لأسرة بتلي منذ أجيال واجها مستقبلاً كئيباً بسبب خطط جسيكا. والآن، لورا بتلي، ورثت كل شيء، وحيث أن سيبي لم تكن تحب المرأة الأخرى، اعترفت بأن كل ما حدث ربما كان بمشيئة الله. لورا ستبقى على وضعها بصفتها سيدة بيكرسلي، والمنزل ومصنعا النسيج سيبقيان في أيدي أسرة بتلي.

وعندما تذكرت فجأة طريقة كلام جسيكا عن زوجة أبيها، في القطار، لم تستطع سيبي إلا أن تشعر بالأسى لأن المرأتين لم تتقابلا قط. كانت واثقة من أن جسيكا كانت ستصبح منافسة لا مثيل لها لعدوّتها.

سحبت سيبي التصميم الذي كانت تعمل عليه قبل أن تتصل بها ليوني، ثم حاولت أن تركز على عملها، لكن هذا لم يكن سهلاً. فكرة الذهاب إلى أسبن وإن يكن ذلك لمساء واحد، أثارت في نفسها ذكريات كانت تفضل أن لا تتذكرها.

ولكنها لن تستطيع هذا طبعاً. فلا شيء يمكن أن يمنعها من تذكر ذلك المشهد عندما ظهر لاري ارنوت في مكتب الرئيس المفتش.. فحتى تلك اللحظة، كانت تتلمس طريقها في العتمة وتتعرف على الأشياء المألوفة هنا

وهناك. ثم ظهر لاري، وكلمح البرق، أزال حضوره الغطاء عن كل الذكريات التي كانت تجاهد لتتذكرها.

وكان كشف الغطاء مؤلماً، إلى حد جعلها تفقد وعيها لعدة دقائق. لقد منح هذا لاري وقتاً للتفكير في قصة يبرّر فيها عمله. لاري أرنوت، كما أخذت تفكر بازدراء. الرجل الوحيد، باستثناء جايمس بتلي، الذي سمحت له بالتقرب إليها، وقد خانها مرة أخرى، مثلما خانها من قبل تماماً.

كانت ما تزال في كلية الفنون عندما تعرفت إلى لاري، وكان هو واحداً من المعلمين. وتملكها الغرور حين أخذ يبدي اهتماماً غير عادي بها. وبدا لها أن شخصاً مثله يطريها ويعرض عليها المساعدة أمر بالغ النفع وافتتنت به، وظنت، بحماقة، أنه يبادلها شعورها. بينما هو في الحقيقة كان يستغل انجذابها إليه لكي يسطو على تصاميمها. وعندما اكتشفت ما كان يفعل حطمها هذا كلّياً.

ربما هذا هو السبب في ذلك التأثر العنيف الذي تملكها حين رأته مرة أخرى وأدركت لماذا جاء، وعندما استيقظت كان قد اختفى. ورغم أن المفتش غضب من الشرطي لسماحه له بالذهاب، إلا أنها لم تؤثر أن توجه إليه الاتهام.

استيقظت من إغمائها لتجد نفسها مستلقية على سرير في إحدى زنزانات المخفر. وكان جايمس معها. تذكرت الآن مبلغ الارتياح الذي تملكها لوجود جايمس بجانبها، رغم أنها رأت من ملامحه أنه تكهن بما حدث. ولكن، مبدئياً، شعرت بالسعادة لاكتشاف نفسها مرة أخرى، ونسيت كل شيء آخر. فهي لم تكن جسيكا دڤلين على الإطلاق. إنها سيسيلي شامبرز. وهي لم تكن في ذلك القطار من أجل الانتقام. وإنما كانت في طريقها لإجراء مقابلة مع مدير الموظفين في شركة ريبلي.

عضت شفتها السفلى. كان عليها أن تشعر بالشكر لأن المدير لم يوظف أحداً آخر عندما لم تصل لإجراء المقابلة. لكن الواقع هو أن المدير أصابه المرض في اليوم الذي تلا الاصطدام، فأرجأ المقابلات مدة غير محدودة.

إنها مصادفة أخرى، كما أخذت تفكر ساخرة. ولكن كان عليها أن تخبر شركة ريبلي عما حدث لها، ومع رجوع البريد تقريباً، قدموا إليها الوظيفة.

لقد قال جايمس إن السبب وراء توظيفها، ليس هو عمل الخير فقط وإنما الدعاية المجانية الكبرى التي ربحتها الشركة من ارتباطها بهذه القصة الغريبة. فالصحافة المحلية على الأخص رفعت صوتها بالثناء على الشركة التي قدمت إليها فرصة متابعة حياتها من حيث كانت انتهت.

الراتب الذي قدمته لها الشركة كان أكثر من كافٍ لتستأجر شقة صغيرة مفروشة في ليدز. ورغم شكوك جايمس واحتجاج ليوني، انتقلت إلى بيتها الخاص بعد عشرة أيام فقط من استعادتها ذاكرتها.

طبعاً، أسباب ابتعادها عن أسبن كانت معقدة ولم تشأ الاعتراف لأي أحد كان. وأدركت أن بقاءها في بيت جايمس يزيد حالتها هذه سوءاً. لقد كان رقيقاً معها منذ البداية، وأصبح بالغ اللطف منذ اكتشف أنها ليست ابنة ابن عمه وظل مصراً على استضافتها ولكنها رفضت ذلك فقد تحسنت صحتها بشكل كبير. وأثناء الشهر الذي تركت فيه أسبن، سافرت إلى لندن وزارت قبر جدّتها، كما رتبت أمر إرسال أمتعتها إلى شقتها في ليدز.

والآن، ها هي ذي على وشك إنهاء ما تبقى من علاقتها بجسيكا دفلين. فقد ارتأت بزيارتها لليوني، أن تفهم جيمس، أنه لم يعد مسؤولاً عنها. كانت تعلم أن كل ما ستقوله لليوني، سيجد طريقه إلى أبيها، وكانت مصممة على قطع ذلك الارتباط نهائياً. ولأنها اكتشفت الآن بأنها مغرمة بالرجل، لا تريد أن تسمح بأن يُذاع هذا الاكتشاف، وما أبلغ سيكون عليه ابتهاج لورا إزاء خبر كهذا، كما أخذت سيسيلي تفكر بمرارة.

* * *

شعرت بغرابة ذلك المساء، والسيارة تدلف بها من خلال بوابة مزرعة خيول أسبن.

أوقف السيد هايز السيارة. وشكرته سيسي قبل أن تفتح الباب لتنزل، ولم تنتظر مساعدته.. وابتسمت له شاكرة بأدب، ثم اتجهت نحو المنزل.

وفجأة تجمدت الابتسامة على فمها. فبدلاً من أن تخفّ ليوني لاستقبالها. وقف جيمس أمامها..

مضت لحظة لم تعرف فيها ما عليها أن تفعل. كانت ممزقة بين الرغبة في متابعة طريقها والتحدث إليه، وبين رغبة أخرى في أن تعود مسرعة إلى السيارة وتطلب من السيد هايز إبعادها عن المكان. ما الذي يفعله هنا؟ وكيف اكتشف ما كانت تخطط له ليوني؟ وماذا سيكون موقفه منها وهي تقبل هذه الدعوة في غيابه؟ تنفست بعمق، وحاولت أن تبدو هادئة. كانت على الأقل، تشعر بالاطمئنان لمظهرها وأخذت تشجع نفسها، إذ بدلاً من ثياب جسيكا المهلهلة الواسعة، كانت ترتدي سترة ضيقة من القطن وتنورة واسعة تنتهي عند منتصف الفخذ. وكان لونها البني، يضفي جمالاً على بشرتها القمحية الجميلة..

أخذ جايمس يسير نحوها. وعندما نظرت سيسي إلى خلفها بحركة لا إرادية اكتشفت أن السيد هايز قد اختفى. ويبدو أنه تركها لمصيرها، كما أخذت تفكر محاولة أن لا تشعر بأنها خُدعت، وأين ليوني يا ترى؟

وإذ أدركت أنها، بوقوفها منتظرة وصول جايمس إليها، تبدو كأرنب خائف، استجمعت شجاعتها.. فهي ليست خائفة منه! لا، الرعب فقط يتملكها من افتضاح مشاعرها كما أضافت بصمت.

ما أجمل أن تراه مرة أخرى! لقد نسيت كم هو جذاب. وسواء سيغضب منها أم لا، فهي هنا الآن وعليها أن تبتهج رغم كل شيء.

وعندما تواجها أسفل الدرجات، قال: «مرحباً، أنا مسرور للغاية لتمكنك من الحضور».

ابتلعت سيسي ريقها ولعقت شفتيها الجافتين، ثم سمحت لنفسها بنظرة قصيرة إليه، وهي تقول بارتباك: «إنه... إنه لطف من ليوني أن تدعوني... أين هي؟».

فأجاب وهو يشير إليها لتسير أمامه: «إنها ليست هنا. هل ندخل؟».

لكن سيسي تملكها الانزعاج لما قال، فقالت متلعثمة: «ليست هنا؟ ماذا تعني بذلك؟ هل... هل حدث لها شيء؟».

ـ لا. إنها تمضي الليلة عند صديقة لها في هاروغيت، وآسف لأنها لن تكون معنا وسيكون عليك أن تتقبليني وحدي معك رغم عدم... اقتناعك.

سيسي، التي بدأت ترتقي السلم بغير رغبتها تقريباً، وقفت الآن وهي ترمش بعينيها.

- أتعني. . . . أتعني أنك كنت تعلم بحضوري؟

فقال بنعومة: «لقد دعوتك فرفضت الدعوة، وهكذا كان علينا أن نفكر بطريقة تحضرك إلى هنا، ولكن لا تخافي. لا أحد سيرغمك على البقاء إذا لم تشائي ذلك».

عادت سيسي تقف عند الباب المفتوح، وهتفت وهي تحملق فيه غير مصدقة: «لا يمكن أن تكون جاداً في كلامك؟».

- بل أنا كذلك مع الأسف.

ومرّت على ملامحه لمحة من فروغ الصبر.

- يا فتاتي العزيزة، وماذا كان عليّ أن أفعل؟ لقد رفضت أي اتصال بي. أردت أن أراك، أتحدث إليك. وكيف، يمكنني أن أفعل هذا؟ بينما أنت لا تقبلين حتى دعوتي لك إلى الغداء؟

فتمتمت بصلابة: «حسناً، هذا لطف بالغ منك طبعاً، ولكن ليس عليك حقاً أن تقلق علي، فأنا بأتم خير، صدقني. وأنت لم تعد مسؤولاً عني. . .».

- تباً لك، فأنا أعرف هذا.

وضع يديه في جيبي بنطلونه ثم قال وهو يقف في وسط الردهة.

- اسمعي، نحن وحدنا هنا. لقد جهزت لنا السيدة هايز طعاماً بارداً قبل أن أمنحها هذه الليلة إجازة، فإذا شعرت بالملل، يمكنك دوماً أن تستدعي من يأخذك إلى بيتك. أو آخذك أنا بدلاً من ذلك بعد أن نتحدث. ما رأيك؟

فترددت ثم قالت: «لا أرى شيئاً هناك لتتحدث عنه».

فقال محاولاً السيطرة على أعصابه بصعوبة: «حسناً، دعينا نحاول على الأقل».

وتنحى جانباً، فاجتازت سيسي العتبة.

كانت السيدة هايز قد مدّت سفرة للعشاء في غرفة الطعام. حيث طالما تناولت سيسي وجباتها وحيدة في الماضي، كانت هناك لحوم باردة ودجاج وفطائر

في أطباق من الخضار وسلطة.

بعد أن أقنع جايمس سيسي لتجلس معه، أخذ يذرع الغرفة بقلق، وبادرها بالقول: «يمكننا أن نأكل الآن، أو فيما بعد، هل أنت جائعة أم لعلك تفضلين الذهاب في نزهة؟ ربما تحبين أن تري آخر مهر مولود، أو ربما لا تحبين. لا أظن لهذا المكان ذكريات جميلة لديك».

- طبعاً لديّ ذكريات جميلة عنه.

لم تستطع سيسي أن تدعه يظن شيئاً كهذا. واحمر وجهها وهي تتابع: «صدق أو لا تصدق! كنت أحياناً أشعر بسعادة بالغة هنا. وأنا لم أكن متشوّقة للرحيل من هنا على الإطلاق».

فنظر إليها بحزم: «لكنك رفضت العودة، أم هو أنا من رفضت رؤيته؟ وليس أي شخص آخر؟».

فتنهدت: «أنت لا تفهم. . .».

- لا. . . لا أفهم.

اضطرب فجأة وسار نحو الباب.

- تعالي، قد أستطيع معالجة الموضوع بشكل أفضل في الخارج. هل ستكونين دافئة أم تريدين سترة؟

- أنا على ما يرام.

أخذت تتبعه بشيء من عدم الإطمئنان. ووقفا خارج الغرفة حيث الشرفة الأرضية.

تذكرت على الفور أول مرة جاءت فيها إلى هذه الشرفة، ذلك العصر الذي استيقظت فيه على جدال ليوني مع أبيها.

كانت حينذاك عديمة الثقة بنفسها للغاية ومتوترة الأعصاب. وارتجفت وهي تتذكر ذلك. ولكن هل اصبحت الآن أفضل بكثير؟ ما زال لدى جايمس القدرة على أن يسلبها كل تلك الثقة.

كان قد وقف الآن والتفت ينظر إليها وهي تخرج من المنزل. وشيئاً فشيئاً انحدرت الشمس نحو المغيب، فوجدت العذر في أن لا تبادله النظرات، لكن

www.elromancia.com

نظراته لم تتوقف.

- كيف كانت أحوالك؟

سألها فجأة بنعومة ورقة بالغتين. ومضت لحظة شعرت فيها بالدموع تخنقها وتمنعها من الجواب. ثم مسحت تلك الدموع الغادرة وكأن أشعة الشمس في عينيها هي المسؤولة عما حصل لعينيها فجأة من ضعف. وتمتمت تقول: «بأحسن حال... أنا... لقد نسيت أي منظر رائع هذا. أنت... أنت محظوظ جداً في العيش هنا».

- جيس!

اندفاعه بدعوتها بهذا الاسم الذي كانت تظنه اسمها من قبل، أسكتها، لكنه تدارك نفسه متردداً: «أعني.. سيسي».

وصححت له الاسم، فعاد يقول: «لا بأس... سيسي».

واخرج يديه من جيبه ومسح راحتيه بنطلونه.

- يا إلهي! كم اشتقت إليك، أحقاً أنك لم تشتاقي إليّ؟

فحبست أنفاسها: «جايمس...».

- لا بأس. لا بأس.

وعاد يسير أمامها فنظرت إلى كتفيه العريضتين بينما كان يتابع حديثه: «أنا أسرع في السير. أعلم هذا، هيا بنا سنسير إلى الاصطبلات. يمكنني أن أريك المهر الوليد على ضوء القمر».

تبعته سيسي، بحركة تلقائية أكثر منها مقصودة، ماذا كان يعني؟ أخذت تسأل نفسها غير مصدقة. ما معنى أن يشتاق إليها؟ فلديه ليوني... ولورا. ولماذا يهتم بما إذا اشتاقت هي إليه؟ كل هذا كان أكثر مما تستطيع فهمه.

رغم أن سيسي ذهبت من قبل إلى الاصطبلات، إلا أنها المرة الأولى التي تكون فيها وحدها مع جايمس. في داخل المخزن حيث صناديق الأمهار المواليد، كانت رائحة الشوفان والتبن حلوة حميمة وجعل هذا سيسي تدرك على الفور عزلتهما.

- هل ثمة شيء خطأ؟

سألها وهو يعود ليقف معها عند السور بعد أن تجنبت دعوته للتقدم وملامسة المهر الصغير. لكنها هزت رأسها: «لا. طبعاً لا».

قالت هذا بحدة وهي مدركة تماماً أن ذراع جايمس لا تبعد سوى ستنمترات عنها. وأسندت يدها على السور الخشبي الخشن، ثم تابعت: «الجو حار جداً هناك. أتظن أن بإمكاننا أن نخرج الآن؟».

عند ذلك تنهد جايمس، لكنه بدلاً من التنحي جانباً لكي تتقدمه إلى خارج المخزن، استدار وعاد يتكيء بجنبه على السور، قائلاً: «دقيقة».

وكان وجهه متوتراً بشكل غريب وهو يتابع: «سيسيلي... أعني سيسي... عليّ أن أتحدث إليك. وقبل كل شيء أريد أن أعرف لماذا كنت تتجنبينني؟».

فابتلعت ريقها: «لم أكن أتجنبك».

- وماذا تسمين ذلك إذن؟ لقد رفضت رؤيتي. لم تقبلي أياً من دعواتي. حتى اضطررت إلى اللجوء إلى ابنتي لكي تدعوك، لأنني كنت أدرك أنك سترفضين.

شعرت سيسي بدقات قلبها تتسارع، وبدا لها الجو خانقاً، ثم أجابت بعدم ثبات: «كان عليّ أن أفكر في أنك شعرت بالارتياح لأنني لم أحاول أن أستغل... صداقتنا... أنا أشعر بعرفان الجميل لأنك تأخذ مسؤوليتك بشكل جاد... لكنني حقاً صرت قادرة على رعاية نفسي. ولهذا، أرجو منك أن لا تقلق عليّ بعد الآن».

ابتعد جايمس عن السور لكن جسمه الصلب الكبير الحجم ما زال بينها وبين أية وسيلة للهرب، ثم سألها بمرارة: «هل هذا ما تظنينه؟».

تردد ثم أردف: «أن السبب الذي يدفعني إلى الاتصال بك هو فقط شعوري ببقايا مسؤولية نحوك؟ ليت الأمر كان كذلك!».

ابتلعت ريقها، تحاول بلهفة أن تسيطر على أنفاسها.

أرادت أن تصدق ما تسمع، لكنها ما زالت مقتنعة بأنها لا بد مخطئة. أو أنها اغفلت شيئاً ما. ماذا كان يقول جايمس؟ وماذا يريد منها؟

وقالت بعد لحظة: «لا... لا أظنني أفهم».

فأطلق ضحكة قصيرة جافة وردّ بحدة: «هذا أكبر إنكار للحقيقة. اسمعي، هذا ليس سهلاً عليّ، يا سيسي. أنا لم أعد صبياً، فأنا أكبر سناً من أن أخادع. إذا لم تشائي أن تريني بعد الآن، فأخبريني فقط. أنا أريدك أن تكوني صادقة، وبإمكاني أن أحتمل الحقيقة».

لم تعرف سيسي ماذا تقول، لكنها ردت متلعثمة: «حسناً، أنا... أعني أن المسألة ليست أنني لا أريد أن أراك...».

ـ ليست كذلك؟

ـ لا، ليست كذلك. بل أنا أريد... على الأقل...

وبللت شفتيها: «آه، أنت تعلم أنني أريد».

ـ أحقاً أعلم؟

ولم يبد في صوته الاقتناع، لكن عينيه اللتين اخترقتا عينيها كان فيهما شيء من الدفء.

ـ استمري.

فرفعت كتفيها: «ماذا تريد مني أن أقول أكثر من ذلك؟ من الصعب عليّ جداً أن... أن أقول أي شيء. لا أدري ما تريد أن تسمع».

فتنفس جايمس بعمق: «يمكنك أن تخبريني بالسبب الحقيقي الذي جعلك تتجنبينني».

فأحنت رأسها: «ظننت... كنت أظن أنك ستكون مسروراً لعدم رؤيتي نهائياً. قبل كل شيء، أنت الوحيد الذي فكر في أن تلك الرسومات قد تعني لي شيئاً. ظننت أن السبب هو لهفتك إلى التخلص مني».

قال بفروغ صبر: «لا تكوني غبية. كل ما أردته هو أن تتحسن ذاكرتك. فما دمت لا تعرفين من تكونين، لا يمكنني أن أكون واثقاً من شيء. على كل حال، لم يكن ذلك سوى إحساس داخلي مني اعتماداً على ما قاله الدكتور باتل. فأنت كنت ترسمين صوراً للأطفال في المستشفى».

أحنت رأسها: «فهمت. حسناً، وقد نجح إحساسك، أليس كذلك؟».

وسكتت لحظة، ثم قالت: «أراهن على أن لورا لم تذرف عليّ دمعة عندما غادرت أسبن».

فتنهد: «لورا؟ ليس للورا شأن بنا، ربما يهمك أن تعلمي بأنني لم أر لورا منذ أسابيع».

فحملقت سيسي فيه غير مصدقة: «ولكن.. ظننت أنكما.. فهمت أنكما سوف.. سوف تتزوجان في النهاية».

فأمال جايمس رأسه: «آه، كان هذا معقولاً، لقد كان هذا هو المفروض قبل عدة أشهر».

فحبست سيسي أنفاسها: «والآن؟».

تردد جايمس قليلاً، ثم قال: «الآن؟ الآن عليك أن تعرفي بنفسك دون سؤال».

ارتجفت سيسي وهي ما زالت تجد صعوبة في أن تصدق أن هذا يحدث حقاً.

ـ هل.. هل أنت واثق من أنك تعلم ما تفعل؟

قالت هذا بصوت خافت فأصدر صوتاً ينم عن الأسى وقال: «أنا لست واثقاً أبداً. ولكن إذا كنت تريدين أن أتصرف بحكمة وأن أتمكن من الكلام، فلا تنظري إليّ بهذا الشكل. فأنا لست خبيراً جداً في هذه الأمور، مع الأسف. لقد مضت عشرون عاماً على شعوري بشيء يماثل شعوري الآن».

كانت سيسي ترتجف، بصرف النظر عما تقوله، فهي لم تتصور أن جايمس لا يمتلك الخبرة في شيء ما.

ـ عشرون... عشرون عاماً؟

رددت كلامه أخيراً، وهي لا تعرف ما تقول. وأومأ هو بقول بصوت مبحوح: «حتى حينذاك، لم يكن شعوري نحو لورا قط كشعوري الآن. هل أنا كبير السن بالنسبة إليك؟ وهل هذه مشكلة؟».

فهزت رأسها: «ولكن.. زوجتك...».

فتنهد: «لقد أحببت أيرين. ولكن ليس بالشكل الذي تعنينه أنت لي. لقد كانت... حسناً، كانت حلوة عذبة للغاية، ورقيقة جداً وبالغة اللطف. كان

www.elromancia.com

فيها كل ما ينقص لورا».

وعاد يسألها برقة فائقة: «هل تفهمين؟».

فابتلعت ريقها: «ابتدأت أفهم».

وتشتت ذهنها لمعنى كلامه حتى لم تعد تستطيع التفكير. فقال بلطف: «ماذا ستفعل بالنسبة لهذا؟ أتظنين أن لدينا مستقبلاً؟».

ـ مستقبل؟

وشعرت بغباء لا يصدّق، لكنها لم تستطع أن تحوّل أفكارها عن المشاعر التي كان يثيرها في نفسها.

ـ أعني أننا، أنت وأنا، نعيش معاً.

ـ آه... جايمس!

لم تعد سيبي تستطيع التنفس الآن، وأحس جايمس بفيض المشاعر الذي غمرها، لكنه تحكم بنفسه، ليقول بهدوء: «هل تثقين بي؟».

فابتلعت ريقها: «نعم، أظن ذلك! ولكنني أشعر بشيء من القلق. ألا ينبغي علي ذلك؟».

فتمتم قائلاً: «ربما لا. آه، يا سيبي. هل أنت واثقة من أنك تعلمين ما تفعلين؟ أنت تعلمين أنني لن أدعك تذهبين أبداً».

وسرعان ما توقفت الدنيا عن الدوران وتقبلت أخيراً أن يحبها جايمس. وسواء أدام هذا الحب الحياة بطولها، أم لشهر فقط، فقد قبلت المجازفة.

ـ أنا أحبك.

همست بذلك وهي تتنهد برضى بالغ.

ـ أحبك.

قال هذا متأوهاً.

ـ أظنني أحببتك منذ رأيتك في المستشفى. وهذا هو السبب الذي جعلني أحضرك إلى أسبن. وليس لأسهّل الأمور على أي شخص آخر.

حدّقت إليه بشغف: «هل تتذمر؟».

ـ أنا؟ آه، لا. أنت أجمل شيء حدث لي في حياتي والعجب هو أنني عشت

حتى الآن من دونك.

ـ آه، يا جايمس...

ـ أشعر وكأننا خلقنا لبعضنا البعض.

وكانت هي أيضاً تشعر بذلك. وفقدت قدرتها على التفكير المترابط بعد أن احتل حواسها وكل مشاعرها. ولم تعد تفكر بسوى جايمس في تلك اللحظات الطافحة بالسعادة.

تأملها مطوّلاً قائلاً: «علينا أن نتحدث».

ـ أحقاً؟ عن ماذا؟

فعبس فجأة. وقال بصوت مبحوح: «عنّا... وعن المستقبل».

ـ آه.

وجذبت نفساً مرتجفاً. لم تشأ أن تفكر في المستقبل، ليس الآن. يكفيها أن يحبها..

فقال: «نعم. أنا أعرف أنني ربما أستعجل الأمور. لكنني لا أؤيد المبدأ الجاري في تفضيل العلاقات المكشوفة. لا. ربما لأنني أكبر سناً من ذلك، أو ربما لأن لي إبنة...»

ـ آه، صحيح. ليوني.

وأردفت، بعد أن تذكرت أن له ابنة: «أتظنها... قد لا توافق؟».

ـ هل تمزحين؟

قال هذا بعنف. وعندما تراجعت متنبهة، نظر إليها غير مصدّق: «لا يمكن أن تفكري بهذا الشكل!».

وأبتسم وهو يقول: «أترانا نتحدث دون أن نفهم بعضنا بعضاً هنا؟».

فارتجفت: «لا أدري».

ـ أخبريني إذن. لماذا يخيفك الحديث عن مستقبلنا..

فحوّلت عينيها عنه: «لست خائفة».

فقال: «حسناً إذن؟».

ـ حسناً إذن ماذا؟

www.elromancia.com

ـ حسناً إذن، متى ستجعليني رجلاً متزوجاً؟

فرفعت إليه بصرها: «هل أنت.. هل أنت تعرض عليّ الزواج؟».

لوى جايمس شفتيه وقال بخشونة: «طبعاً أعرض عليك ذلك. ماذا كنت تظنين إذن؟».

فحبست أنفاسها: «أنا... ولكن.. هل أنت واثق؟».

فضاقت عيناه: «وأنت؟ ألست واثقة؟».

ـ آه، طبعاً.

ونظرت إليه وقلبها في عينيها: «أحبك، وسأتزوجك في أقرب وقت».

فبدا عليه الارتياح: «هذا حسن... ظننتك غيرت رأيك».

فهزت رأسها: «ولكن... ماذا بالنسبة إلى ليوني؟».

ـ هي التي تدبرت هذا اللقاء، أليس كذلك؟.

* * *

بعد ذلك بستة أشهر، كانت سيسي تتنزه مع زوجها على جواديهما حين تعثرت قائمة فرسها بوكر أرنب فوقعت أرضاً. كانت هذه المرة الأولى التي تسقط فيها، وأسرع إليها جايمس على حصانه، ثم قفز عنه، راكضاً إلى حيث كانت ملقاة.

ـ حبيبتي! سيسي. هل أنت بخير؟

هتف بذلك وقد تملكه الخوف. كانت تشعر بأنها بأتم خير، إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من المزاح. فسألته ببراءة: «أين أنا؟».

تأوه خوفاً من إصابة دائمة، فرفع خوذتها عن رأسها ومرّ بأصابعه على شعرها العسلي برفق وهمس: «أنت هنا. في أسبن معي... أنا جايمس. آه، يا عزيزتي قولي إنك تتذكرين من أنت!».

نظرت إليه ببلادة لحظة، ثم أشفقت عليه فانفجرت ضاحكة. وعندما رأت أنه فهم خديعتها، قالت: «آسفة. لم أستطع منع نفسي من المزاح. أنا بخير، صدقني. هل الفرس بخير؟».

كبح جايمس رغبة في أن يهزها هزاً، ثم قال: «سأطالبك بتعويض فيما

بعد».

فابتسمت ساخرة: «وعود... وعود».

ثم ترنحت قليلاً وتأوّهت.

ـ ماذا حدث؟

وهذه المرة بدا الخوف عليه. فقالت: «إنه دوار خفيف فقط».

وعندما رأى أنها لا تغيظه هذه المرة، قال لها:

ـ يمكنك أن تركبي معي.

قال ذلك وهو يخفي قلقه، بموجة من علامات الاستنكار، وعندما عاد إلى البيت أصرّ على استدعاء الطبيب.

وقال الدكتور بائل بعد أن فحصها: «لا شيء يستدعي القلق».

فنظرت إليه بانزعاج: «وهل أنت واثق؟ هل تخبر جايمس بما لم تخبرني به؟».

فابتسم: «سأدعك تخبرين جايمس بنفسك. فقد يجد فكرة الأبوة بعد كل تلك السنوات، شيئاً غريباً».

ـ أنا حامل إذن!

فأجاب ببشاشة: «نعم، حوالى شهرين، كما أظن. وعليك أن تقللي جداً من ركوب الخيل، نحن لا نريد لك حادثة أخرى، أليس كذلك؟».

وعندما دخل جايمس الغرفة، كانت سيسي ما تزال في حالة تأمل. فسأل وهو يجلس على حافة السرير.

ـ حسناً ماذا قال لك؟ لقد رفض العجوز أن يخبرني بشيء. قال إن الأمر مسألة نسائية بحتة.

ـ نعم. هذا صحيح.

ولمعت شفتيها متسائلة بشيء من القلق عما إذا كان جايمس سيشعر بنفس سرورها لهذا الخبر.

ـ همم... أتظن ليوني ستعترض إذا عرفت فجأة أنها ستحصل على أخ أو أخت؟

فقاطعها جايمس غير مصدق: «هل تخبرينني بأنك حامل؟».

www.elromancia.com

فأجابت بشيء من التوتر: «نعم. هل لديك مانع؟».

ـ أمانع؟ حسناً... طفل؟... ما دمت أنت مسرورة فأنا مسرور للغاية.

ابتسمت له وسألته: «ليوني؟».

ـ وماذا عن ليوني؟

نطق بذلك صوت ساخر من خلفهما، وابتعد جايمس برغمه عن زوجته عندما رأى ليوني مستندة إلى إطار الباب. كان يبدو أنها عادت من المدرسة لتوّها، وكانت تتابع قائلة: «هل سيسي بخير؟ أخبرتني السيدة هايز بأنها سقطت عصر هذا اليوم عن ظهر الحصان».

نزلت سيسي عن السرير وهي تقول: «أنا بخير. فقط أنا حامل».

ونظرت إلى جايمس.

ـ حامل؟

بدا الذهول التام على ليوني لهذا الخبر. ونظرت إلى أبيها.

ـ أحقاً؟

فأجابها بجفاء: «وهل كنت تظنين أنني كبير السن بالنسبة لذلك؟».

فهزت رأسها: «لا أدري... أظن... أظنني أحب هذه الفكرة. تصوّر! سيكون لي أخ أخيراً».

فقالت سيسي: «أو أخت. لا أستطيع أن أعرف ماذا سيكون».

فكرت ليوني قليلاً: «همم... متى سيولد؟».

ـ حسناً، الولادة على ما أظن ستكون في حزيران أو تموز من السنة المقبلة. إنه وقت كافٍ لكي تتعودي على الفكرة.

ـ نعم.

كان واضحاً أن ليوني قد بدأت تستحسن ذلك، ونظرت إلى أبيها.

ـ ربما الآن بعد أن يكون لك بنت أخرى أو ولد يتبع خطاك، لن تبقى مصراً على أن أبقى في المدرسة، أليس كذلك؟

تأمل جايمس ابنته، وقال وهو يقلب شفتيه: «سأفكر في ذلك. وإذا كان هذا كل ما تريدين أن تقوليه...».

فقالت ضاحكة: «أنا متلهفة لأن أرى وجه لورا عندما تسمع الخبر».

وضحكت بصوت خافت. منذ زواج أبيها، أرغمت المرأة الأخرى نفسها على أن تبتلع كبرياءها وتعترف بهما. تابعت ليوني تقول: «هل يمكنني أن أخبرها أنا بنفسي؟».

فتنهد جايمس: «سأفكر في الأمر».

ونظر إلى ابنته وكأنه يتوقع منها شيئاً.

ـ ألا تريدين أن تغيري ملابسك، أو شيئاً من هذا؟

ـ لا بأس، أنا ذاهبة.

واستدارت لتذهب، ولكنها قبل أن تخرج من الغرفة ابتسمت لهما: «انتما سعيدان حقاً معاً، أليس كذلك؟».

فقالت سيسي بحزم: «نحن جميعاً سعداء».

فأومأت ليوني: «إلى اللقاء».

ثم خرجت صاعدة إلى غرفتها.

وتنفس جايمس الصعداء، ثم تمتم وهو ينهض ليغلق الباب: «أطفال... هل أريد حقاً المزيد منهم؟».

وعندما عاد إلى سيسي سألته بقلق: «وهل تريدهم؟».

فأجاب ضاحكاً برقة فائقة: «أحب فكرة إنجاب أطفال منك، وسأقوم بكل ما بإمكاني لأجعلهم سعداء».

* * *

www.elromancia.com